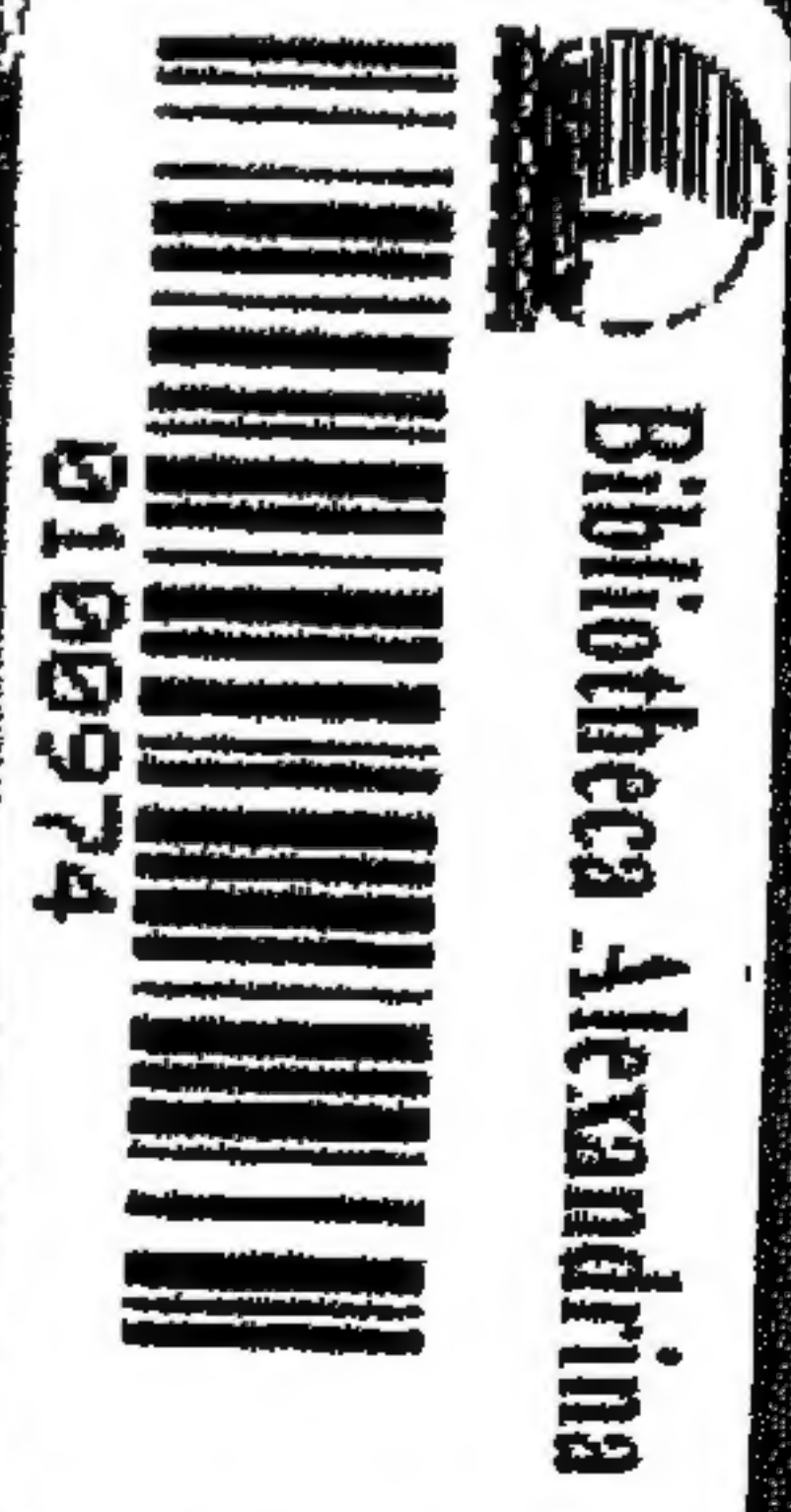


عبد السلام ياسين

الإسلام والقومية العلمانية



الإسلام
والقومية العلمانية

• بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ •

حقوق الطبع محفوظة
1915هـ - 1995م

- الكتاب : الإسلام والقومية العلمانية
- الكاتب : عبد السلام ياسين
- الطبعة : الثانية 1995 .
- الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية
- التوزيع : دار البشير - طنطا - أمام كلية التربية النوعية . ت . 104
- التجهيز الفني : شركة الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . ص . 10
- الإيداع القانوني : 94 / 11569
- الترقيم الدولي : 97 - 6 - 5065 - 977 - I . S . B . N

دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

طنطا : 33 ش' الشهيد عادل الزواوي أمام كلية التربية النوعية
ت : 322404 فاكس : 331800



الإسلام والقومية العلمانية

تأليف

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب يطمح إلى عرض مسألة لا يمكن للفكر الإسلامى أن يتجاوزها : هى مسألة القومية وعلاقتها بالعلمانية .

إن المثقفين المسلمين ، من بقى منهم على موروثة الفطرى الإسلامى ومن تنكر لدينه، ينشغلون انشغالا كثيرا بالبحوث فى التراث والأصالة والأمجاد القومية ، ينسجون من كل هذه المفاهيم طيلسانا يتقنعون به ليزدان فى أعينهم الواقع الكئيب لمجتمعاتهم . فى هذا الكتاب نصطنع اللغة التى يألّفها المثقفون لنحاورهم محاولين إسماع كلمة الإسلام .

إن الله عز وجل حين خلق الإنسان وذراه لم ينبته فى أرض عراء ، وإنما أنشأه فى حضن قوم رَعَوْا نَشَأَتَهُ . فمن الفطرة التى يتخذها الإسلام أساساً عليه يكملُ البناء العاطفى الفكرى السلوكى للمسلم : أسبابُ الصلة بين الإنسان وقومه . حيث يأمر دينُ الله القويم بحسن صحبة الوالدين وذوى القربى ولا ينكر إلا الحمية الجاهلية وهى العصبية القومية .

فى هذا الكتاب نعرض إن شاء الله لشيء من تاريخ الإيديولوجية القومية التى نبعت فى أرض غير أرضنا فاستوردها المثقفون المغربون من ذرارينا ليركبوا متنها فى كراتهم التى تحمل شعارات الإلحاد المفلسف تارة والردة والزندقة مرة والإلحاد العلمى أحيانا والأصالة التراثية أحيانا أخرى .

ومن خلال العرض التاريخى نقول رأينا الإسلامى .

وعلى الله قصد السبيل .

عبد السلام ياسين

سلا 15 ربيع II 1409

الفصل الأول

اللسان العربي

الولاء للغة

إن ألفاظ كل لغة تحمل المعانى الدارجة عند أهل كل لغة كما تحمل اللغة بمجموعها ، نحوها وتركيبها وبلاغتها ، شعرها ونثرها وأمثالها ، تجربة الشعب الناطق بها حساسيته وفكره وأسلوبه فى الحياة ونظراته للإنسان ، ومكانه فى الكون ، ومصيره وقيمه . لكنها تمثل فى نفس الوقت رباطاً أساسياً يلم المجتمع ، رباطاً يقرب بين الناس وإن اختلف العرق واختلف الدين .

فإذا كان الرباط الدينى ضعيفاً بانسلاخ الناس عن الدين ، واجتمع رباطا العرق واللغة فقد يستطيعان حرب الدين ويكونان خطراً عليه . وهذا بالضبط ما يحدث فى بلاد العروبة ، إذ نرى زعماءها ، وفى مقدمتهم النصارى العرب الذين يريدونها قومية ناطقة بلغة الضاد لا بلغة القرآن ، ينشدون أمجاد اللغة العربية ، ويتيهون هياماً بها ويرفعونها مكاناً سامياً .

إنها نوع وثنية ، حيث تستحيل اللغة هى الروح ، هى الأصل والفصل ، هى الحاضر والمستقبل ، هى التاريخ والحقيقة ، هى الكل .

ولاء العرب القوميين للغة التى نزل بها القرآن كولاثنا للقرآن . نحب هذه اللغة ونعتبرها كما يعتبرون أجمل اللغات وأشرفها . وإذن فما قد وجدنا جسراً متيناً للحوار والتقارب والتفاهم ما دمنا نعشق نفس الملاحظة .

هكذا يخيل لمن يكتفى بملاحظة الظاهرة دون الكشف عن الأسباب أو لمن يسعى أن يمد الجسور ويبسط يد التفاهم بأى ثمن . عندما نغبط بامتلاك لغة شرفها الله عز وجل واختارها لينزل إلينا فيها ذكره ، يعتبر العروبيون بأن العروبة قدمت للإسلام وللقرآن هذه اللغة العبقريّة . عندما ننظر إلى صنع الله عز وجل حيث خلق قوماً ودرجهم فى أطوار النشأة حتى تطورت لديهم لغة كان الله عز وجل فى سابق علمه هيأها لتكون وعاء لوحيه كما هيأ رجلاً من بين أولئك القوم لتلقى ذلك الوحي ، يرى العروبيون أن عبقريّة الأسلاف ونباهة العرق وشرف الأرومة معطيات (موضوعية) أفرزت اللغة العبقريّة

وأفرزت النبی . فشتان ما بیننا . إن العروبة فی محنتها التاریخیة الحاضرة ، وهی محنة المسلمین ، تتشبث باللغة العربیة كما یتشبث الغریق بید منقذه . فعلیها معولهم وإلیها مرجعهم من کل خیبة . بها ومنها النهضة ، وبها الحیة والبطولة ، لسر عظیم یقدرونه لها كما نؤمن نحن بالله عز وجل وتأيیده . یقول زکی أرسوزی وهو من المؤسسیین الأولین لحزب البعث العربی ورواده : « أمنية کل عربی هی أن یمکن بطلا ، وأن یمکن شاعراً ، ینشد روعة أعماله ومناقب أجداده » . إن ذلك یمکن « بالعودة إلی لغتنا الی هی أبلغ مظهر لتجلی عبقریة أمتنا ، إن لغتنا لهی مستودع تراثنا ، فإذا ما وعینا ما تضمنت کلماتها من حدس ، بلغنا ما بلغ أجدادنا من عزة وسؤدد . مثل کلمات لغتنا کمثل البذر من النبات . تضم (یقصد تختفی) فیها المعانی ضمور الحیة فی البذر (...) فقد أصبح البعث عندنا العودة إلی الینبوع ، إلی الحدس المتضمن فی الکلمات ، کالعدالة والنظام والشعر والجمال ... » (1) .

تأثیر الشاعریة الرومانطیقیة لفلسفة فخت الألمانى واضحة . وقد کان لفلسفة الألمان ودعوتهم إلی اللغة الألمانية الممجدة فی خطابهم وفکرهم الید الطولی فی استنهاض الحماس الشعبی الذی مهد لتوحید ألمانيا .

★ ★ ★

(1) نقلاً عن مجلة « الفکر العربی » العدد 22 ، سبتمبر 1982

العروبة والإسلام

فى اللغة يكمن المخزون الحدسى ، ينبوع العبقرية والحياة فى نظر العروبيين . مجرد الرجوع للغة يفتح مصبات ذلك ينبوع الثرار . وتلك أحلام تناسب تماماً الانفعالية القومية التى تتجلى فى ميدان السياسة شعاراتٍ ملتهبة ، وتعوض الهزائم العسكرية والفشل فى الحكم والوعود المخلفة فى ميادين الاقتصاد بالخطب الرنانة التى ترفع العربى القح إلى سماء السؤدد والنخوة منذ عهد أجدادنا فى عكاظ ومحافل العروبة .

امتداد بين الجاهلية والإسلام فى العاطفة والانفعال ، و« العبقرية » كما هو امتداد فى النسب . هكذا الأمر فى الوعى القومى . وما الإسلام إلا ظاهرة طارئة ، ثمرة من ثمرات الأمجاد العربية .

أما نحن فإن لنا تعلقاً خاصاً باللغة القرآنية ، تعلقاً هو من الدين ، من صميم الدين ، لأن شكل اللغة لا يمكن فصله عن مضمون الرسالة . اللغة العربية هى الوعاء ، هى الرحم ، هى الجسم . جمالها ليس هو القيمة ، لكن القيمة ما حملة إلى عقلنا وقلبنا ذلك الجمال . بيانها ليس الغاية والمنى لكن ما أبانه من معان . قال الله عز وجل : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ (2) . وقال عز من قائل يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ لتكون من المُنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (3) .

ثم إن القرآن كلام الله عز وجل لفظاً ومعنى . ما هى الألفاظ العربية من كلام الله حتى تكون فى التركيب القرآنى . وعندئذ فقط يكون اللفظ بالقرآن فى الصلاة مجزئاً ، وتكون الصلاة صلاة . وما من مسلم ومسلمة يحرصان على دينهما إلا يتعلمان حداً أدنى من القرآن الكريم بلفظه العربى ، فىكون ذلك وصلة لكلام الله عز وجل ، وشرطاً فى صحة العبادات وشعوراً إيمانياً لا يعرضه شىء غير التبلىغ أو التضلع من الكتاب العربى المبارك .

إن من أسماء القرآن الكريم « الذكر » . هو تبصرة وذكرى فى أعماق الفطرة

(3) الشعراء: 195 .

(2) الزخرف : 3 .

الإنسانية ، استعداد لسماع النداء الإلهي الذي يتضمنه القرآن . لذلك نشاهد تأثير القرآن الكريم متلوا مجودا أو مقروءا نصا على السامع والقارئ . فما بالك بتأثيره على العرب الأولين الذين سمعوه سميعين : سمع الفطرة وسمع الاستعداد الخاص بأذن عربية وعاطفة عربية واستثناس بالبلاغة والجرس . فالقرآن يذكر الناس بما في أعماق الفطرة ، ويذكر العرب على مستويين اثنين .

ما من كتاب سكن في أعماق أهل لغة ما سكن القرآن . ولا كان أبلغ تأثيرا ، ولا أشد حفزا للعزائم ولا أدعى للاحترام والتقديس . ولا أقدر على صرف وجوه الناس وقلوبهم وعقولهم وجهودهم للجهد حتى الموت في سبيل الله . ما كان ذلك ولا يكون بخاصية في اللغة العربية ، إنما كان ويكون بما تحملته اللغة العربية من بركات الوحي الإلهي ، وما تغشاها من هيئته . إن الله تبارك وتعالى خالق العرب وخالق لغتهم وخالق استعداداتهم الفطرية . وقد جعل سبحانه في المحل الذي اختاره لتجلى وحيه وظهور رسوله ورسالته ظروفا قابلة لتلقى كل ذلك ، صالحة لحمله ونصره . وكانت عروبة العرب اللغوية مكملات لاستعداداتهم الأخرى المواكبة والمساعدة . اجتمع كل ذلك ، فتبلور خيرا وقوة ، أخلاقا ورجولة ، في القلب الإسلامي وبالروح الإسلامية .

لا ننكر أن للعرب والعروبة مزايا منيفة ، لكن تلك الاستعدادات التي أصبحت مزايا بفضل الإسلام كانت رزايا في عروبة العرب الجاهلية . كذلك نتظر ونرجو أن يعيد الله عز وجل رحمته بالعرب فتظهر في عرب اليوم تلك الاستعدادات التي هيأ لها الأسباب فظهرت أول مرة لتحمل عبء الرسالة ، تلك الاستعدادات الفطرية العزيزة التي تكمن اليوم في العرب ، ويطمرها أكثر ما يطمرها أحلام العروبة العلمانية التراثية وأوهامها .

مزية الكرم كانت في الجاهلية ذريعة ليعدو العرب بعضهم على بعض في الغارة ، وليقامر بعضهم بعضا في الميسر ، وليرابى بعضهم بعضا ليجمع ما به ينحر الجزر ويوقد نار القرى وينال ثناء فحول الشعراء . علمهم الإسلام كسب الحلال وبذل الفضول ، ليكون الكرم تكملة لنسيج المجتمع الأخوي . وهكذا الشجاعة العربية التي كانت تستنفد في الحروب والمبارزات والتناصر ، رفعها الإسلام فأصبحت بأسا على أعداء الإنسانية . وهكذا شيمة الحرية والأنفة وإباء الضيم ، رفعها الإسلام من حضيض العصبية القبلية – حضيض

العصبية القومية اليوم - إلى ذرى العزة بالله ورسوله . وهكذا شيم الوفاء وسرعه البديهة
وحب المدح والثناء الحسن . الإسلام مجد العرب وشرفهم ، فمتى اعتزوا بغير الإسلام
ذلوا على حد قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

★ ★ ★

« جزء ماهيته »

هذه عبارة مألوفة عند علماء الأصول ، معناها أن العربية جزء لا يتجزأ من الدين ، إذ هي حاملته وحاضنته . ومتى دخلت العجمة اللسان ، أو حال حائل العجمة دون فهم البيان فقد انغلق ما كان مفتوحاً من أبواب الفقه وهو أعظمها ، وسارعت إلى الناس الهلكة . أخرج البخارى فى تاريخه الكبير أن الحسن البصرى رحمه الله قال : « إنما أهلككم العجمة ! » .

وقد اتفق علماء الأصول على أن أول آلات المجتهد فهم اللغة العربية فهما واسعا . وفصل الإمام الغزالي رحمه الله الكلام فى الحد الأدنى من علم اللغة الضرورى للمجتهد فقال : « إنه القدر الذى يفهم به الخطاب العربى ، وعاداتهم فى الاستعمال حين يميز بين صريح الكلام ، وظاهره ومجمله ، وحقيقته ومجازه ، وعامه وخاصه ، ومحكم ومتشابهه ، ومطلقه ومقيده ، ونصه وفحواه ، ولحنه ومفهومه . وهذا لا يحصل إلا لمن بلد فى اللغة درجة الاجتهاد » (4) .

يقتضى هذا أن يكون للمجتهد المتصدى لفهم كتاب الله وسنة رسوله التبحر التام فى نحو اللغة وصرفها وبلاغتها حتى يستشف ما يحمله ظاهر اللفظ وما يستتر وراء التراكيب من دقيق المعانى ولطيف التعابير . بذلك فقط يمكنه أن يستخرج الأحكام الشرعية . فلا تقل صحة فهم اللغة عن أهمية صحة النص .

فإن دخلت العجمة فى اللسان أو حالت عجمة القلب والعقل عن النفوذ إلى أسر اللغة فلا أمل فى أن يبلغ النداء الإلهى محله من النوعى ، ولا أن تستشرف العقو المستعجمة المستغربة إلى مجالى العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . ولا يغرينا تبج قوم بفهم العربية ، يتصدرون لبسط إيديولوجياتهم ينسبون لها للإسلام ويلفقونها حول آيا من القرآن ، يموهون باطلاعهم الموسوعى وبهرجة اللفظ وزخرف القول . روى الإمام أحمد رحمه الله عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم

(4) نقلا عن كتاب « تاريخ المذاهب الفقهية » لأبى زهرة رحمه الله ، جزء 2 ، ص 110 .

تدركنى زمانا - أولا تدركوا زمانا - لا يُتَبَع فيه العليم ، ولا يُسْتَحْيَى فيه من الحليم ،
قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب . « وليس المقصود من الحديث الشريف
أعاجم اللسان من المؤمنين ، بل عجمة القلب هى انغلاقه عن الإيمان .

من أهم أسباب هذه العجمة القلبية العقلية انصراف ذرارى المسلمين من هذا النشء
المستغرب عن تلقى الدين من العلماء به ، وتلقيهم عن فلاسفة الكفار . قال الإمام الشافعى
رضى الله عنه : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان
أرسطوطاليس . » لا شك أن ما قصده الإمام بلسان أرسطوطاليس ليس اللغة اليونانية فى
حد ذاتها ، لكن منطق الفلاسفة ومذهبهم . بيد أن مداخلة لسان أعجمى ذى مضمون
كفرى لا تلبث أن تجر المثقف إلى تشرب روح تلك الثقافة الكافرة . إذ لا يمكن هنا أيضا
أن نفصل بين اللغة وما تحمله وتتضمنه من رسالة . فاللغة المادية الإلحادية « جزء ماهية »
الكفر . وهنا تعترضنا مشكلة عويصة لمستقبل الإسلام ، وهى كيف نتعلم لغات العلوم
ونحذقها دون أن تعدينا فلسفة تلك اللغات وكفرها .

إن هذه الذريعة الخطيرة المفتوحة فى جنب الأمة تدخل إلينا منها رياح الفلسفة
المادية ، ذريعة وثغرة اللغات الأعجمية ، لفى حاجة إلى علاج سريع . والمشكلة ذات
حدين : الضرورة الملحة لامتلاك تلك اللغات بصفاتها حاملة العلوم والتكنولوجيا ، وكيف
يمكن أن تقيم حاجزا بين متعلم لغة ما وبين ما تتضمنه من عقائد وقيم ؟ العلاج تربوى
شامل ، فما لم يتحصن المتعلم من داخله ، ما لم يصلب عوده على الاستقامة ، وما لم
تكتمل شخصيته الإيمانية فتعريضه للاحتكاك بلغة أعجمية مخاطرة . أكتب هذا فى سنة
1985 بتاريخ النصارى ، سنة من سنوات استفحال الغزو الثقافى : فى عقر كل بيت من
بيوتنا معقل للتغريب والتعجيم ، فيديو ، آلات التقاط لرسائل الأقمار الصناعية اللاحنة بكل
لحن .

كان تبرز أسلافنا رحمهم الله من العجمة شديدا ، فلذلك كان علماءهم يخالطون
عرب البادية يخشون من خلطة أنباط المدن وأعاجمهم . فكان أئمة اللغة حجة يرجع إليها
الفقهاء والمجتهدون . والإمام الشافعى رحمه الله نفسه قضى زمانا فى البادية ليتعلم اللغة
لعربية البريئة من كل عجمة .

أخرج البيهقي في الشعب عن الأصمعي قال : جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق . فقال له : يا أبا عمرو ! الله يخلّف وعده؟ فقال : لن يخلّف الله وعده . فقال عمرو : فقد قال : وذكر عمرو آية فيها وعيده . فقال أبو عبيد : من العجمة أتيت ! الوعد غير الإيعاد ثم أنشد :

وإنسى إذا أوعدته أو وعدته * * * لخلّف إيعادي ومنجز موعدى

أرأيت كيف كانت لفظتان قريبتا المبني متناقضتا المعنى ، الوعد والوعيد ، تختلطان في ذهن غير خبير بفصاحة العربية ، فأدى ذلك لفهم مخالف . وإن كثيرا من الخلافات المذهبية في العقائد والفقهاء إنما مرجعه للتفاوت في فهم اللغة كما قال الشافعي رحمه الله .

وعلى الكفاءة في فهم اللغة تتفاوت مراتب الباحثين في الشريعة . قال الإمام الشاطبي رحمه الله : « إذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية ، فهو مبتدئ في فهم الشريعة ، أو متوسطا فهو متوسط في الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية . فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة ، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة . فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنه . وكل من قصر فهمه لم يكن حجة ولا كان قوله قولا مقبولا . » (5) .

★ ★ ★

(5) المصدر السابق ، ص : 111 . ظ

إعجاز القرآن

فَهُمُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعْيَارٌ لِلْفَهْمِ ، وَحُجَّةٌ لِلْفَقِيهِ . ذَلِكَ أَنَّ سَلِيْقَتَهُمُ الْعَرَبِيَّةَ ، ثُمَّ التَّرْبِيَّةَ النَّبَوِيَّةَ وَالتَّعْلِيمَ ، وَمَا وَقَرَّ بِتِلْكَ التَّرْبِيَّةِ فِي الْقُلُوبِ مِنْ إِيمَانٍ ، قَرَّبَتْ إِلَيْهِمُ الْمَأْخُذَ . ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ عُلَمَاءَنَا مَنْ لَمْ يَحْظُوا بِتِلْكَ التَّرْبِيَّةِ ، وَلَا هُمْ أَهْلُ سَلِيْقَةٍ ، فَكَانَ لَا بَدَ لَهُمْ مِنَ التَّبَحُّرِ فِي اللُّغَةِ لِيَعْرِفُوا فَضْلَ الْقُرْآنِ ، وَلِيَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ عَقْلِیِّ لِلْفَهْمِ فِيهِ يَنْبِرُهُ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى . قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ تَأْوِيلِ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ : « إِنَّمَا يَعْرِفُ فَضْلَ الْقُرْآنِ مَنْ كَثُرَ نَظَرُهُ ، وَاتَّسَعَ عِلْمُهُ ، وَفُهِمَ مَذَاهِبُ الْعَرَبِ ، وَافْتَنَانَهَا فِي الْأَسَالِيْبِ ، وَمَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ لُغَتَهَا دُونَ جَمِيعِ اللُّغَاتِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ أُمَّةٌ أُوتِيَتْ مِنَ الْعَارِضَةِ وَالْبَيَانِ وَاتِّسَاعِ الْمَجَالِ مَا أُوتِيَتْهُ الْعَرَبُ خَصِيصًا مِنَ اللَّهِ لَمَّا أَرَهَصَهُ [أَيْ لَمَّا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ سَبِيْحَانَهُ] فِي الرِّسُولِ ﷺ وَأَرَادَهُ مِنْ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَالكِتَابِ ، فَجَعَلَهُ عِلْمُهُ كَمَا جَعَلَ عِلْمَ كُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الرِّسَالِيْنَ مِنْ أَشْبَهِ الْأُمُورِ لَمَّا فِي زَمَانِهِ الْمُنْبَعِثُ فِيهِ » (6) .

أُمَّةُ الْعَرَبِ أُوتِيَتْ الْعَارِضَةُ وَحَاسَةُ الْبَيَانِ وَذُوقُ الْبَلَاغَةِ ، لِهَذَا جَاءَتْهَا الْمَعْجَزَةُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . وَهِيَ مَعْجَزَةٌ خَالِدَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْتَحَ قُلُوبَ الْعَرَبِ الْمُحَدِّثِينَ لِلْإِسْتِمَاعِ لِرِسَالَةِ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ قُلُوبَ الْأَوَّلِينَ . أَمْ تَرَى فَسَدَ ذَلِكَ الْحَسِّ ، وَانْطِفَآتُ تِلْكَ الْعَارِضَةِ ، وَاسْتِحْلَاطَ ذَلِكَ الذُّوْقِ الَّذِي كَانَ رَائِقًا فِي الْجُدُودِ ؟ تَرَى إِلَى أَى حَدٍّ تَحُولُ الْعَجْمَةُ الْقَلْبِيَّةُ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ السَّمَاعِ الْكَلِّيِّ الْمَطْلُوبِ وَلَوْ تَهَاتَفَتْ الْأَلْسُنُ بِالْعُرُوبَةِ ؟

أَذَعَنْتِ الْعَرَبُ لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ ، فَمَا وَسَّعَ عِظْمَاءُ قُرَيْشٍ إِلَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ إِلَّا الْإِعْتِرَافُ بِهِ ، إِذْ قَالَ قَائِلُهُمْ لَمَّا سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ : « وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ أَعْرَفُ بِالشَّعْرِ مِنْنِي ، وَلَا أَعْرَفُ بِرَجْزِ الشَّعْرِ وَقَصِيدِهِ مِنْنِي ! وَاللَّهِ مَا يَنْشِبُهُ الَّذِي يَقُولُهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ! وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لِحَلَاوَةً ! وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ! وَإِنَّهُ لَمُثْمِرُ أَعْلَاهُ ، مُعَذِّقُ أَسْفَلِهِ ! وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يَعْلى عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لِيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ ! » .

(6) نقلًا عن السيوطي رحمه الله في كتابه : « صَوْنُ الْمُنْطَقِ وَالْكَلَامِ عَنْ فَنِي الْمُنْطَقِ وَالْكَلَامِ » ص . 23 ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بِبَلَدِ تَارِيخِ .

لكن عنادهم وكفرهم منعاهم من بناء الإيمان على الإذعان . فقاوموا التنزيل وصاحب الرسالة بكل وسائل المقاومة . ومن أهمها منعهم العرب من الاستماع لدعوة الرسول ﷺ التي كان لبها وأسلوبها تلاوة الآيات البيّنات . وآذوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما اتخذ في حوش بيته مجلسا يتلو فيه القرآن فيجتمع أبناء العرب ونسأؤهم ليستمعوا التلاوة . وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك حيث قال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (7) .

إن أولئك العتاة لم يكونوا يحسنون نفاق الشعارات ، لم يكونوا يخفون نياتهم تحت عبارات « الحوار المفتوح » ، وتحت الإشادة بهذا « التراث العظيم » . كان الخطاب الإلهي ناصعا في بيانه ولا يزال ، كان قويا في وقعه على الفطرة ولا يزال . أولئك العتاة الأولون قاوموا وقعه المباشر بالحجز الساذج المباشر كما فعل قوم نوح من قبل حين غطوا آذانهم بالأصابع وغطوا وجوههم بالثياب فعلة مجتمع طفولي . قال نوح عليه السلام كما حكى الله عز وجل عنه : ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ (8) .

وفي هذا العصر عتاة تدفعهم للإنكار نفس النية ، ويدفعهم الاستكبار ، لكنهم يصمون آذانهم وآذان الناس عن السماع والاستماع بوسائل متطورة هيأها المجتمع المتحضر . إنهم يجعلون بين الناس والقرآن حجابا كثيفا اسمه « التراث » .

قرأت لمستغرب مستشرق ، واحد من الأساتذة الأكاديميين المتخصصين في دراسة « التراث » حين سأله : « كيف تفهم الإسلام ؟ » فأجاب متعجبا بما معناه « كيف تريد مني أن أفهم الإسلام قبل أن أقرأ كل ما كتب عن الإسلام ؟ » هذا وأمثاله ينصبون أمام أنفسهم حاجزا هائلا من إنتاج البشر يتقون به الحق ، يحتجبون وراءه لكي لا يسمعوا كلام الله من حيث هو كلام الله . إنما القرآن عندهم نص من النصوص بحاجة إلى أن « يعيدوا قراءته » مستنديين إلى المناهج اللسانية البنيوية التي تؤسس لهم فهماً تشككيا عديميا يذيب النص

(7) فصلت : 25 .

(8) نوح : 7 .

المقروء فى غىابات اللأدرىة المطلقة . هذا هو الأسلوب العصرى من آخر طراز لذلك الموقف الكفرى الخالد ، موقف جعل الأصابع فى الآذان ، واستغشاء الثياب ، والإصرار والاستكبار . لولا أن هؤلاء أصابعهم من صنع أنفسهم لا هذه الأصابع الحسّية ، وثيابهم ألوان من « المعارف » والمناهج والفلسفات ، وإصرارهم واستكبارهم معه المنصب الجامعى ، والاطلاع الموسوعى والمؤلفات والحِثّة المرموقة فى الأوساط الاستشرافية .

عرب الجاهلية أذعنّت منهم الفطرة القرىبة لبلاغة القرآن وبقي القلب مطبوعا عليه ، أما هؤلاء فسرا بيلهم « المعرفىة » وأكداس المفاهيم والمعطيات من مكتسبات العصر فى مجالات « العلوم الإنسانية » غطت فىهم حتى بقايا الفطرة والعياذ بالله السميع العليم .

★ ★ ★

مناط الإعجاز

إن الله عز وجل تحدى المشركين أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن . قال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ (9) .

فى آية أخرى تحداهم سبحانه أن يأتوا ولو بسورة واحدة حيث قال جلّت عظمتة : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ (10) . وكانت لبعض العرب مثل مسيلمة الكذاب محاولات سخيفة ، وكان له قرآن زعم أنه حديث مثل حديث نبى قريش .

كان تحدى الخالق سبحانه لخلقه أن يأتوا بحديث مثل القرآن إبرازا للإعجاز فى وسط قوم هم أهل الكهانة والسحر والشعر والقصص . فلو كان القرآن شيئا من هذا القبيل ، ولو استطاع أن يكون هناك مثيل أكثر « مصداقية » من السخافات الصبائية المضحكة إذن لثبت أن محمدا ﷺ شاعر كالشعراء أو كاهن كالكهان . قال الله عز وجل يخاطب نبيه : ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (11) .

ولو كان محمد ﷺ شاعرا لانتهدت رئاسته وسلطته المعنوية بانتهاء حياته : ﴿شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ . وهذا بالضبط ما يزعمه ملاحدة العصر التطوريون الذين يرون فى القرآن نصا تاريخيا صاحب حركة ثورية ورسم إديولوجيتها . وذلك فى تقديرهم شأن مضى وفات ، وعلى الطليعة التقدمية أن تجهز على مخلفات تلك الحقبة التى لا تحب أن تموت بعد موت محمد ﷺ . (الصلاة والسلام منا لذكر الحبيب . وبه وجب التنبيه) .

كانت قريش ، والعرب معها ، لا تستطيع أن تضبط من أى ناحية يكتسب القرآن فعله

(9) هود : 13 .

(10) يونس : 38 .

(11) الطور : 27 - 32 .

المؤثر فيهم ، فحاروا في تصنيفه مقارنة بإطارهم المرجعي : شاعر؟ ساحر؟ كاهن؟! قال أنس أخو أبي ذر الغفاري لأخيه ، وكان أنس شاعرا : « لقيت رجلا بمكة على دينك - وكان أبو ذر متألها قبل إسلامه - يزعم أن الله أرسله : قال أبو ذر : « فما يقول الناس ؟ » قال : « يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر . » قال : « سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، وقد وضعت على أقوال الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد أنه شعر . والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون » .

روعة الأسلوب وجزالة اللفظ لعلها راعت كثيرا منهم . لكن تلك الروعة لا تكفي لتفسير الإعجاز القرآني . كما لا يكفي مناطا له وعلة ما فصله علماؤنا المسلمون حين ألفوا في الإعجاز القرآني وفصلوا أسبابه . فهم يرجعون الإعجاز إلى أسباب أربعة :

(1) جزالة اللفظ وبلاغة الأسلوب .

(2) إخبار القرآن بأحوال القرون السابقة التي ما كان للعرب بها خبر .

(3) إخبار القرآن بأحداث مستقبلية حدثت فعلا في عهد النبي ﷺ وبعده .

(4) إخباره بعلوم كونية سابقة لاكتشاف البشر .

وقد يشيرون إلى التشريعات المعجزة السامية بكل مقياس .

بيد أننا نرى أن محاولة استكناه أسباب الإعجاز لن تنتهي إلى شيء يمكن أن نضع عليه أيدينا وكأن قد فرغنا من اكتشاف حقيقة القرآن . فالقرآن كلام الله عز وجل لفظا ومعنى ورسالة ، وكل محاولة للتحليل والتركيب تؤدي إلى مزالق مثل التي سقط فيها العقلانيون المعتزلة في مقالاتهم في خلق القرآن . وقانا الله مواقع الزلل . القرآن كلام الله عز وجل تقمص لسانا بشريا . فإعجازه ذاتي ، إعجازه من مصدره الإلهي ، إعجازه من كون الفطرة البشرية عرفت فيه سطوة الألوهية وتعرفها ، ما عدا من طبع الله على قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم . قال الله تعالى في حق المطبوع على قلوبهم من الكافرين : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . ﴾ (12) .

(12) محمد آية : 17 .

لغة القلب

هذه اللغة العربية التي حملت القرآن ، وحملت السنة ، وحملت علوم المسلمين ، وحملت حضارة عظيمة ، هل بوسعها أن تحمل لمستقبل الأمة حضارة اليوم والغد وما يكون هذه الحضارة من مضمون تقنى علمى ماضى ؟ هل تبلغ هذه اللغة الشريفة اليوم وغدا رسالة تحرير الإنسان كما بلغت من قبل ؟

ما دام القرآن بين ظهرانينا لم يرفع رسالة التحرير محمولة ، واقتحام العقبة سماع مطلوب ، والاستجابة له منشودة . على السماع والاستجابة مدار هذا الكتاب .

إن هذه اللغة الشريفة المشرفة بحمل القرآن وصحبته اكتسبت روحانية وقدرة على غزو القلوب ووصف مشاعر الإيمان ونبضات الإحسان . تلك الروحانية وتلك القدرة لا نجد لها ، وأنى توجد ، فى أى لغة غيرها . كل لغة غيرها منقوصة الأعضاء مبتورتها عديمة الكفاءة عن التعبير فى ميدان الرحمة . وأذكر أننى أقصد بالرحمة ما من الله عز وجل إلى العبد ، أقصد تلك العلاقة الإيمانية الإحسانية . أما ميدان الحكمة فالعربية فيها ، ككل اللغات ، محتاجة إلى الاقتباس ، قابلة للإثراء . أقصد بالحكمة اجتهد العقل وإنجازها لمقتضيات الرحمة .

إن قدرتنا على اقتحام العقبة ، والعقبة تحرير وعدل وسيادة ، تتوقف على اكتساب لغتنا الشريفة المحتد سلطان الكفاءة العملية ، سلطان السيطرة على المكاسب العلمية البشرية ، سلطان الصلاحية للاستقلال بتلك العلوم والسير بها قُدماً نحو القوة الحقيق بها من يستخلفهم الله عز وجل فى الأرض .

ليس المشكل هو إسعاف المتعلم والمفكر بالعربية بالكلمات اللازمة ، لكن المشكل أن نطور أداة للتعبير عن العصر دون أن نضيع بعيداً عن لغة القرآن ، أن نسعف العقل بأداة إجرائية مع تقوية لغة القلب .

إن اللغة العربية ملك مشترك بيننا وبين القوميين العرب ، ملك بين المليار مسلم وبين

حفنة فاعلة نشيطة من المثقفين . هؤلاء يريدون أن يبدأوا بعلمنة العربية ، بجعلها لغة عامة ، وبعضهم يريدونها عامية ، تخاطب كل العقول ، لا صلة لها بالدين . يريدونها لغة عقل متفتحة على العقلانية الكونية ، مندمجة فيها . لا يرون لها مستقبلا ما لم تكتسب المرونة من تطبيق المفاهيم الدينية الغيبية واعتناق الواقع الإجرائي المتطور .

نحن نريد عكس كل هذا ، يريد كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر وإن كان لسانه العادى أعجميا . فمن الأداة اللغوية ، ومن المواجهة بين المطلبين المتناقضين ، ترتسم أمامنا إشكالية الصراع بين ثقافات علمانية مادية وبين رسالة الإسلام ، وتفتح أمامنا آفاق ليس الإثراء الفعلى للغة فيها أهون من مقاومة تغريب لغتنا وعلمنتها وبترها .

★ ★ ★

الفصل الثانى

التراث والأصالة والتحديث

صدمتان قاسيتان

تاريخ المسلمين حافل ، ربما أكثر من تاريخ أية أمة ، بالاصطدامات والحروب الداخلية والنكبات : ثورات داخلية ، احتلال صليبي دام مائة عام ، غزو التتار والمقاتل الهائلة ، الانحسار من الأندلس ... إلخ .

لكن صدمتين فى تاريخنا كان لهما ولا يزال الأثر البالغ فى نفوس المسلمين توارثته الأجيال ، والأثر البالغ فى وجهة المسلمين . إنهما أعظم التحديات فى تاريخنا .

أما الصدمة الأولى فانكسار الوحدة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه وما نتج عن تلك الفتنة المؤلمة من قتال بين الصحابة ، وما تلا ذلك من تمزق الجماعة ، إذ ظهرت الخوارج وتسلسلت إلى طوائف شغلت بحروبها المسلمين قرونا ، وظهرت مطالبات آل البيت عليهم السلام وقوماتهم منذ قيام الإمام الحسين عليه السلام . ولم يكن مقتله الفاجع أقل وجوه تلك الفتنة قتامة ، فتميزت الشيعة وتسلسلت مذاهبهم ومقاومتهم . كان أهم نتيجة لهذه الفتنة تحول نظام الحكم من خلافة على منهاج النبوة إلى ملك عاض . ولم يكن تاريخنا بعدئذ إلا معجزة عظيمة من معجزات التاريخ ، نقول بلسان الإيمان : حفظا لإلهيا وعناية ، إذ استمرت الأمة فى الوجود ، واستمر الإسلام فى انتشار ، رغم هذه الشجة المردية فى الرأس : ألا وهى فساد الحكم .

لكن هذه الصدمة على فداحتها واستفحال نتائجها على العصور إلى الآن ما لبثت أن استوعبها عقل المسلمين واستساغها وعيهم ، فعاش العلماء من أهل السنة والجماعة فساد الحكم باعتبار أن النبى ﷺ أخبر بوقوع التحول من الخلافة إلى الملك العاض ، وسكتوا عن كثير مما كان ينبغى أن يقاوموه تهمما منهم وحفاظا على « بيضة الإسلام » وشوكته وقوته ووحدته أن تنكسر ، مهما كانت هذه الشوكة وهذه الوحدة . وعاش الأئمة وشيعتهم نتائج تلك الفتنة فى التقية والاستخفاء أو فى الانتفاضات بحق كالزيدية ، وخاض الأدعياء فى الماء العكر مثل المختار الثقفى ودولة الباطل العبيدية .

تلك الفتنة كانت أم الفتن لتبكيها وهولها . أما الصدمة الثانية التى غطت على الأولى

وأيقظت ذكرها في نفس الوقت فهي الاستعمار الغربي ، واحتلال الكفار أراضي المسلمين ، ذلك الاحتلال الذي بدأ في الجزائر والهند منذ نحو مائة وخمسين سنة وبلغ مداه وأوج فلكه مع قيام دولة اليهود في فلسطين .

★ ★ ★

التفوق المائل

اكتشفت بعض بلاد المسلمين قوة الغرب وبأسه قبل عهد الاستعمار . تلقت مصر المملوكية « زيارة » نابليون التى لم تدم إلا ثلاث سنوات كما يتلقى الحلم المزعج . لكن انسحاب الغزاة السريع لم يتح الوقت والفرصة ليدرك المسلمون البؤس المثير بين أعدائهم وبين حالتهم من الضعف العسكرى والانحلال السياسى والاجتماعى ، وخاصة العجز الفكرى والتنظيمى والعلمى . ولعل قلة وعيهم بذلك مكنهم من المقاومة بما لديهم من وسائل هزيلة حتى رحل أصحاب البأس الشديد إلى شؤونهم الأوروبية ، يعلمون أوربا الثورة البرجوازية التى صنعت القوة الهائلة التى انضبت بعدئذ على العالم بلاء كان أكثره إيلا ما بلاء المسلمين .

قاوم المسلمون بعد نابليون هجمات الاستعمار بوسائلهم الذاتية الموروثة : بأسلحة فكرية إسلامية ، وبحوافز إسلامية هى بقية الروح بعد خمول القرون . قام الإمام أحمد الشهيد يحارب الإنجليز فى الهند ، وقام الأمير عبد القادر ضد فرنسا سبعة عشر عاما فى الجزائر ، وقام المهدي السودانى يقاتل أعظم امبراطورية فى ذلك التاريخ ، وقام السنوسية فى ليبيا ، ومحمد بن عبد الكريم الريفى فى المغرب . هذا إلى هبات كثيرة متواصلة إسلامية شعبية استمرت بوجه من الوجوه حتى التحمت بحركات التحرير الوطنى التى ما كانت لتحدث لولا استمرار الشعور الشعبى بكراهية الكفار . فكل من قاتل الاستعمار من المسلمين القتال الفعلى المسلح ما قاتلهم لمجرد أنهم غزاة ، بل قاتلهم أولا لأنهم كفار ، وجاء الاعتبار الوطنى فى المقام الثانى .

وبدأ القتال السياسى على يد المثقفين من أبناء المسلمين . والتقى فى هذا الميدان الواردون من المعاهد الدينية والواردون من المدارس المتأثرة بالغرب ، مثل مدارس « التنظيمات » العثمانية أو الغربية قلباً وقالباً مثل مدارس التنصير ومدارس الاستعمار .

وشيئا فشيئا ، وبتقابل الأفكار « المعهدية » الإسلامية والأفكار « المدرسية » ثم الجامعية، وبتأثير بعضها فى بعض وتوالد بعضها من بعض ، ومزايدة بعضها على بعض

ومحاربة بعضها لبعض ، انمحي في وعي الكثير ممن حاربوا الاستعمار محاربة سياسية ذلك الفرق الجوهرى الأول بين الإسلام والكفر ، بين الحق المغزو والباطل الغازى . جاء جمال الدين الأفغانى رحمه الله من الهند بوعى كان قد نشأ فى الهند مشتركاً بين الهندوس والمسلمين ، وعى عماده فكرة الاستعمار القومى ، لا فكرة طغيان الكفار على المسلمين . فلما تصدى مصطفى كمال لجيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى واستطاع من موقف وطنى أن يحتفظ لبلاده باستقلالها المتخلص المحلى ، شاعت فى أوساط المثقفين الفكرة القومية العلمانية وبدأ انطفاء الفكر الإصلاحى الذى قاده محمد عبده ورشيد رضا وأولئك الرجال رحمهم الله .

وقبل أن ينبعث الوعى الإسلامى والحركة الإسلامية على هامش الفكر القومى والوعى الوطنى على يد أمثال الشاب العبرى حسن البنا والمودودى وسائر رواد الحركة الإسلامية المعاصرة ، ثم بعد هؤلاء وإلى الآن ، سادت النظرة الواقعية المقارنة بين الذات المتخلفة والغرب المتقدم ، بين قوته وضعفنا ، بين نمائه وفقرنا ، بين صناعته وحرفتنا البدائية ، بين علومه وأميتنا ، بين عقلانيته وخرافية عقلنا .

حقائق قاسية لا مناص من الاعتراف بها . وتبارى المثقفون من أبناء المسلمين منذ الحركة الإصلاحية فى تفسير الأسباب التى أدت إلى هذا التباين الهائل بيننا وبينهم . فكان الفكر الإسلامى ولا يزال يفسر التخلف والهزيمة بالابتعاد عن الإسلام ، بينما الفكر القومى والعلمانى يعزوان ذلك إلى أسباب ليس تعلقنا بالإسلام أقلها سلبية فى نظرهم .

الإسلام سبب تخلفنا ، والقومية العلمانية سفينة النجاة ، هذا شعار فضفاض لف فى أدرانه ويلف كل الدعوات المستلبة ، دعوات المستغربين ، يؤمهم نصارى العرب .

البعد عن الإسلام سبب هواننا ، هذا شعار الإسلاميين . وقد أصبح الإسلام ، لغربة الإسلام بين أهله ، فى حاجة إلى إعادة عرض الإسلام من أسسه . لغربة الإسلام ولضرورة التجديد على كل حال .

★ ★ ★

التراث المجيد

لكن المسلمين ، خاصة العرب حتى النصارى منهم ، رجعوا بعد الاندھال الأول عن الذات ، وبعد الانسياح هياما وإعجابا بالغرب وحضارته ، إلى البحث عن الذات والأصل ، جريا مع موجة التأصيل التى عمت العالم المستعمر بعد الحصول على الاستقلال . رجعة إلى الجذور القومية والثقافية ، وتشبث بها لتوازن تيار التحديث المهدد باقتلاع المجتمعات التابعة للحضارة السائدة .

كان أبو هريرة رضى الله عنه يعلن مرة فى الأسواق أن ميراث محمد ﷺ يوزع فى المسجد . فلما ذهب الناس للمسجد لم يجدوا إلا قراء يتلون القرآن . فقال أبو هريرة : « هذا هو ميراث محمد ﷺ » . القرآن ميراث المسلم ، وهو حقيقة إسلامه وشرعية حياته ، وروح سلوكه وسلوك الأمة فى كل الميادين . أما التراث فى عرف التراثيين والمؤصلين فهو « شىء » خارج عنا ، شىء نملكه ونعتز به ، لكنه شىء لا وظيفة له إلا ملء هذا الفراغ النفسى الذى يشعر به المثقفون عندما تعرض البضاعات الحضارية ، فيجدون أن ليس فى أيديهم ما عند الآخرين من تقدم وعلوم وصناعات وتفوق عسكرى واقتصادى وفنى . فلا بد إذن من « بضاعة » حضارية تثبت بها شرفنا وتفوقنا الماضى .

وقد وجد المثقفون من أبناء المسلمين أرضية مشتركة يجتمع فى نواحيها ، ويتفاهم ولو اختلفت الأسباب والنيات ، كل من القومى والعلمانى والإسلامى . الكل يفخر بهذا التراث ويحب أن ينمى المعرفة به . وما يقدمه هذا التراث المجيد من عزاء للنفوس كان ولا يزال حاجة لتضميد الجراح التاريخية ولتخدير الحس التاريخى كلما ذكرتنا الهزائم الممضة ، و« النكبات » و« النكسات » ، بأننا فى وادٍ سحيق .

الحكام القوميون والوارثيون يستعملون هذا المخدر بإسراف ، يقدمونه جرعات ملونة للشعوب ، مسكرة بأدوات الفن وحيله . وهاك الأفلام والمسلسلات ! يا ليت كانت حياة الصحابة مثالا يعطى للخلق المتين ، والدين والشجاعة والفروسية التى ينبغى أن تتحلى بها الأجيال ! يا ليت كانت النظرة إلى الماضى المجيد استجماعا لقوى الحاضر لنخطو خطوات

على العقبة ! لتتحرر من الذاة ، لنطعم فى هذه الأيام ذات المسغبة ، لنكون أمة تقاتل .
لكن التراث الشيئي هو نفس هذه من أدوات الاستبداد ، ومن أهمها . لأنه لا يوقظنا إلى
فضاعة التفاوت فى الأرزاق . نمتنا فى زوايا التفرج والتسلية . ويتعالى الشعار المخدر :
أمجاد يا عرب أمجاد ! ليتنود ، نسهاء الحلقة توتر مريضى نحو الانحطاط فى حلقة تالية :

★ ★ ★

إطراء الذات

لم يكن التاريخ المجيد الذى اكتشفه المثقفون المسلمون من جديد بَلَسَماً للعزاء فقط ، بل كان مصدر افتخار وبارقة أمل . بما أن الأجداد كونوا أمة ناهضة فاتحة غالبية صانعة حضارة بعد أن لم يكونوا إلا قبائل « متخلفة » متقاتلة فى أصقاع جزيرة العرب ، فما المانع أن نعيد نحن الأبناء تلك التجربة ونستعيد تلك الأمجاد ؟

وعلى تباين وجهات النظر فى تحليل أسباب تلك « النهضة » الأولى وأسباب « الانحطاط » الحالى انبرى المثقفون المسلمون يحيون تلك الذكريات . وكان ولوع المستشرقين بتراث الشعوب وتشجيع الدول الاستعمارية لدراسته بقصد معرفة العقليات من خلال تراثها قد كدس إنتاجا جديدا فى مناهجه على ما ألفه المسلمون . ومن ضمن هذا « الإنتاج » دراسات منصفة عرضت تاريخ الحضارة الإسلامية بلا تحيز ، ويذكر اسم كوستاف لُبون الفرنسى فى مقدمة الكتاب الذين استقبلت ترجمات كتبهم بترحيب شديد فأما الإصلاحيون الإسلاميون فرحبوا بهذا التأييد غير المنتظر من جانب العدو ليركزوا على الشعار الإسلامى : « لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . وأما القوميون العلمانيون ، ونادرا ما تفرق القومية عن العلمانية . فكان ترحيبهم لحاجة عاطفية بما أنهم من السلالة العربية المسلمة ينالهم من ذلك المجد رشاش ، ولحاجة إيديولوجية ؛ لأن الذات السياسية والكيان الحضارى الذى يدافعون عنه فى وجه الاستعمار ها قد أثبت له التاريخ وجودا وكرامة تاريخية .

وفى كلا المعسكرين كان إطراء الذات التاريخية نوعا من الانتصار على المستعمر المتفوق حاضرا تفوقا باهظا . وكان من لازم العملية أن نبحث عن مطاعن فى تاريخ الآخرين وحاضرهم . ولم يكن العلمانيون أنفسهم آخر من يعير الغرب بفقره الروحى وفساده الأخلاقى ومادية قيمه . وهنا أيضا تلقى المثقفون المسلمون الفكر الغربى المتحرر الناقد لتلك الحضارة الآتلة للسقوط فتبنوها .

وما لبث أن تميز تاريخ المسلمين الإصلاحيين فى أعينهم تميزا ما ، فبرزت الفترة

النبوية الخلافة على أنها النموذج الخالد في كتابات السلفيين من أمثال الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما الله . يوازي اقتراب هذا الفكر الإسلامى من الينايع ابتعاد العلمانيين القوميين ، كثير منهم ، عن إسلامية المسلمين ليتعلقوا فقط بالقومية والإنجازات الحضارية والامتداد غير المتميز من جاهلية ما قبل الإسلام .

ثم ازداد تعلق الإسلاميين بنموذجية العهد النبوى ، وانتقل العلم بتلك النموذجية إلى العمل على التحزب لله عز وجل والتربية والجهاد على مثالها على يد رواد الحركة الإسلامية ، منذ حسن البنا ومعاصريه . وازداد بعد العلمانيين عن إسلامية الأمة إلا باعتبار الإسلام مفخرة من مفاخر العروبة ، مضى وفات الإسلام ، وتبقى العروبة خالدة . وهكذا تأصلت الحركتان المعاصرتان المسيطرتان فى بلاد المسلمين : هؤلاء تأصلوا فى البعثة النبوية وفى القرآن وفى شريعة سماوية وعهد نموذجى وأولئك فى العرق ، وخاصة فى اللغة والثقافة .

كلما توغل المثقفون العلمانيون فى « تراث الآخرين » ، وتشربوا فلسفتهم ومناهجهم ، وداخلوا نمط معاشهم حتى تمكنوا فى عشرتهم ، تقمصوا الخصوصية القومية لتعطيتهم أصالة واسما وحيثية وجودية تاريخاً . لكن اللب غربى محض ، نفسا وعقلا وأهدافا . وكلما تمكن الإسلاميون فى التحزب لله عز وجل عملا ، وفى الإخلاص له نية ، وفى التمسك بكتابه هاديا وبسنة رسوله ﷺ منهاجا ، اكتشفوا عمليا وعاشوا قلبيا مصدر تلك الطاقة الإيمانية الأولى . اكتشفوا الذات الإسلامية .

الإسلاميون يعيشون إسلامهم ، والآخرون ينشطون فى طبع « التراث » ونشر التراث وتحليل التراث واستفهام التراث . ازداد نشاطهم فى هذه الميادين بعد أن أضاعوا الفرصة ، وفشلوا فى قيادة الأمة . وبذلك يلحق نشاطهم فى « إحياء » التراث من المكتسبات نشاط المستشرقين الذين أسدوا إليهم خدمات جلى .

★ ★ ★

التراث الحى

لابد للإسلاميين أن يشغلوا ميادين البحث فى التراث اليوم للتمكن من المادة ، وفى غد الدولة الإسلامية ليوقفوا هذه الثروة الأكاديمية المحمومة حول البحث ، وبحث البحث ، والحذقة فى الجزئيات التافهة يحسبون ذلك هو العلم . إذا كان الغرب يفعل ذلك فله وسائله ، وهو حر فى ممارسة ترفه الفكرى . أما جهودنا فنبغى أن تنصرف أولاً إلى البحث العلمى فى كليات الدين ، وإلى الاجتهاد فى وضع الإطار القانونى الإسلامى لحاضر ولغد يعجان بالغرائب ، وينبغى أن ينصرف لاكتساب العلوم التجريبية وتوطين التكنولوجيا والاستقلال بها .

وجد الآخرون منهجيات تبسيطية جاهزة ، تتلمذوا فيها للغرب الرأسمالى أو للشرق الشيوعى ، فهى عندهم مادية محضة هنا وهناك ، والسوق عامرة . أما نحن الإسلاميين فلا نزال فى الأطوار الأولى التأسيسية ، وتنقصنا الممارسة السياسية والتجربة الميدانية لكى نطرح الأسئلة الكفيلة بعرض الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى لبلاد الإسلام وللعالم ، للحاضر والمستقبل ، على معاييرنا التى لا تنكر الماديات والجسمانية ، ولا أسبقية الماديات والجسمانية فى الوجود وفى سلم الضروريات ، لكن تبنى على الضرورة الجسمية المادية الحياة الغائية ، حياة الإيمان بالله عز وجل وباليوم الآخر . وحياة الإيمان هى سر بقاء هذه الأمة وزاد انبعاثها .

بدأ فى الساحة اتجاه جديد : القوميون العلمانيون أخذوا يغمسون أقلامهم فى محابر إسلامية الشعار ، لكن المداد هو نفس المداد . فى طليعة هؤلاء منافقون حاذقون تخرجوا ويتخرجون من مدرسة « الواقعية التراثية » ، هكذا أسميها . فظنوا بعد فشل الإيديولوجيات فى بلادنا أن المستند الشعبى الذى يفتقرون إليه فى تناول اليد ، ما بينهم وبين « التراث الحى » فى قلوب الأمة إلا أن يعرفوا كيف يتقربون إليه ويبلورونه ويقودونه حيث يوهمونه أنه مطلب الإسلام .

على شريعته إمام هذا الاتجاه ، وقد كان لفكره ومحاضراته وتأليه الأثر البالغ فى

تقريب الشباب الإيراني المثقف من الشعارات الإسلامية . وسبحان الله كيف تأيدت الثورة الإسلامية في إيران بمثل هذا الإنسان ! وإن له بين ظهرانيها في بلاد العرب لتلامذة ، وإن الاتجاه فيما يبدو ، والله أعلم ، هو تسابق كل المدارس والأحزاب الفاشلة إلى الشعارات الإسلامية . سبقت إلى ذلك في إيران تنظيمات يسارية مثل « مجاهدي خلق » ، وتسابق الأحزاب من كل الاتجاهات إلى نشر المقالات الإسلامية في صحفها ، بل إلى تخصيص جرائد حزبية « إسلامية » . الهدف هو المبادرة إلى كسب تعاطف الأمة ، وجني ثمار الحركة الإسلامية .

علي شريعتي المثقف الترائي يرى أن مقاومة الدين في المجتمعات الشرقية أتى بعكس النتائج التي ترتبت على علمنة المجتمعات الغربية . ويرى أن مقاومة الدين في بلاد المسلمين أدت إلى تحطيم السد الذي كان يقف حائلا في وجه النفوذ الإمبريالي ونفوذ الاستعمار الاقتصادي ونفوذ فلسفة الاستهلاك وغلبتها والانحطاط الفكري والانحراف (1) .

من مزايا هذه المدرسة الشريعتية أنها تخاطب ، من فوق رؤوس الجماهير المسلمة موضوع الرهان التي لا تفهم لغة المثقفين ، زبناءها بكل صراحة . إقرأ مثلا كتاب التراث والتجديد للدكتور حسن حنفي ، وهو حامل لواء هذه المدرسة ، تقرأ العجب العجائب : الكفر المتبرج ، والخلط الإيديولوجي ، والاطلاع الموسوعي في خدمة كل ذلك .

يقول شريعتي : « في القضايا العلمية والفلسفية ينبغي علينا أن نبحث عما إذا كانت القضية صحيحة أو باطلة . أما في القضايا الاجتماعية فينبغي علينا أن نبحث عن عامل آخر نسيناه جميعا ، ومن هنا كانت آراؤنا خاطئة وخبط عشواء . في القضايا الاجتماعية هناك أمر آخر غير الصحة والبطلان ، ينبغي أن نبحث عنه ، هو : متى نطرح القضية وأين ولماذا ؟ » (2) .

يرى الكاتب المنافق أن الأمة الإسلامية لما تنضج تاريخيا ، لما تصل إلى طور تستطيع معه تقبل « الحقائق الصادقة » القائلة : إن الدين هراء تسلت به البشرية في طفولتها . لا حق ولا باطل ، لكن واقعية انتهازية .

(1) اليسار الإسلامي ، 1 ، ص : 62 ، ربيع الأول 1401 ، شر د . حسن حنفي ، القاهرة .

(2) نفس المصدر والصفحة .

القانون التراثى الواقعى .

ومن أمهات فكر شريعتى وسربه ، وهى نغمة سيردها بيغاوات ، أن لكل مقام مقالاً ، وأن لكل طور تاريخى ولكل خصوصية ظرفية ، إيدولوجية تناسبهما . والدين والتراث أمور تشغل بال الأمة ، وتكون « المخزون النفسى » للجماهير على حد تعبير حسن حنفى . فما علينا إلا نخضع لقانون هذه الخصوصيات .

وقد صاغ على شريعتى هذا القانون الذى ينبغى أن نستمع إليه بانتباه لأنه مدخلنا فى المستقبل لفهم التطورات المتسارعة منذ الآن فى مواقف التراثيين على الساحتين الفكرية والسياسية . قال : « وهناك قانون فحواه : إننا فى ظل ظروف اجتماعية معينة تستدعى كلاماً خاصاً ، وتبنى أهدافاً معينة وطرح قضايا معينة . إذا وجهنا الأذهان وشغلناها بأمور أخرى نكون قد ارتكبنا الخيانة مهما كان ما يطرح من قبيل الحقائق العلمية أو الدينية أو الفلسفية ، ولو كان بين أيدينا من الأدلة لإثبات صحتها ألف دليل . » (3) .

نقرأ معه هذا القانون الذى يؤسس مدرسة النفاق « العلمى » وأرجو أن لا يتألم أحد من نعتنا لأهل النفاق والكفر بالنعوت التى يطلقها الشرع على أهل النفاق والكفر . فنحن نصف المواقف بالموضوعية ، ونرتكب نحن أيضاً الخيانة إن أطلقنا عليهم مجاملة أى نعت آخر ، خاصة وهم يشهدون على أنفسهم بالكفر والنفاق لا يستترون .

استعمل المترجم من الفارسية إلى العربية كلمة « فحوى » ولهذا دلالاته ، فالفحوى عند الأصوليين الدلالة الظاهرة للكلام ، ومن ورائها « المفهوم » وهو المعنى الآخر الغائب لفظاً المفهوم معنى ، إما موافقة أو مخالفة . كأنه يقول لزبنائه : « اقرأوا جيداً ما بين السطور » . ودلالة أخرى هى أن المترجم تراثى كالمترجم عنه ، كلاهما يتحرك بالألفاظ الفقهية . ولا حاجة لقراءة ما بين السطور ، فالقانون واضح . كأنه يقول : « مهما كانت الحقائق التى نؤمن بها ومعنا لإثباتها ألف دليل ، فحذار أن نظهرها أو نستعملها ، بل نستعمل الشعارات التى تروج سياسياً وتبنى الأهداف الرائجة عند الشعب . إيماننا بأن

(3) نفس المصدر ، ص : 63 .

الدين إيديولوجية مرحلية ، وأن العقلانية الليبرالية أو الماركسية هي الحق ، وأن الاشتراكية هي العلم وهي المستقبل ، كل هذا نكتمه حتى تتمكن أقدامنا في الساحات الشعبية . ولن يكون لنا هذا أبدا إن لم نحرك « المخزون النفسى » للجماهير برفع شعارات الإسلام .

هذا هو الأفق الذى بقى مفتوحا أمام الترائيين : أن يوظفوا الإسلامولوجيا أداة مدهنة ليحصلوا على ثقة الجماهير المعبودة الغالية . هذا الموقف بديل إيجابى للمنادب والنواح العاجز الذى يسود أوساط المستغربين أسفا على انقطاعهم وغربتهم عن الجماهير التى ترفض كل ماعدا الإسلام . فعلى شريعتى ومدرسته طليعة متقدمة فى الميدان .

★ ★ ★

القومية والدين

استعمال الدين استعمالاً إيديولوجياً خداع لم يكتشفه المقنن الترائي ، إنما قلد فيه جهابذة الاستعمار . والرجل قومي علماني له أهداف قومية علمانية ، لم يكن بوسعه وقد مات قبل الثورة أن ينظر قانون محاربة الإسلام بالقومية كما يفعل حزب البعث العراقي منذ أربع سنوات ونصف (4) . فلجأ إلى اللعب على الحبلين ليخدم أهدافه القومية بشعارات إسلامية كما خدم الاستعمار أهدافه بإثارة الشعور العرقي طورا والشعور الديني طورا آخر . وقد أورد التلميذ النجيب مصدر اجتهاده ليوثق قانونه ويعطيه المصداقية . كتب قائلاً : « يقول جوني لايون ، وهو أحد كبار مفكرى فرنسا فى شمال إفريقيا : « ينبغي أن تقسم منطقة شمال إفريقيا ... » لكن كيف ؟ يقول : « اكتشفت أن نصف سكان شمال إفريقيا من الناحية التاريخية – من البربر ، والنصف الآخر من أصل عربى . وليس بالأمر المحسوس أيهم من أصل عربى وأيهم من أصل بربرى . ثم قمت بأبحاثى واستنتجت أن الطائفة التى أغلبها من البربر ذات إحساسات قومية أكثر حدة . أما الطائفة العربية فإحساساتها الدينية أكثر غلبة . ومن هنا رأيت أنه ينبغي أن تطرح القضايا القومية والعلمية المعاصرة بين أبناء الطائفة الثانية حتى تزلزل قاعدتهم الدينية ، كما ينبغي أن ينتشر الدين بين أبناء الطائفة الأولى بحيث يتم انفصالهم عن أبناء الطائفة الثانية بعد أن ذابوا فيهم الآن فى وحدة إسلامية . وبأية وسيلة ؟ بوسيلة طرح قضية القومية » .

قلت : لم ينشر الاستعمار الفرنسى الدين بين البربر ، إنما قوى الشعور القومى ، ونشر الأعراف الجاهلية فيما يسمى بالقضية البربرية .

ويشرح المعلم شريعتى المذهب قائلاً : « نرى إذن أننا حين نجرد القومية تماماً من وضع اجتماعى خاص أو زمن تاريخى ، فإنها تكون مدرسة فكرية تقدمية كما وصفت فى الكتب ، وتكون طبيعة . لكننا فى هذه الظروف نرى أن نفس هذه المدرسة الفكرية الصحيحة الصادقة التى استند عليها كل هؤلاء العلماء الأوربيون ، وأنتجوا كل هذه

(4) كتبت هذا بعد بداية الحرب العراقية الإيرانية بأربع سنوات ونصف .

الآداب العظيمة على أساسها ، وعلى نمط تفكيرها ، وأن هذه المدرسة التي أزلت ظل الحكومة البابوية عن أوروبا ، ومنحت أوروبا الخلاص ، صارت بالنسبة لوحدة المشرق سببا في الانقسام والفرقة والعناء .

لا يحتاج إدراك مرمى الرجل إلى كبير عناء ، فهو لا يخفى إعجابه وإيمانه الشديدين بالفكر القومي الذي يعتبره حقيقة الحقائق . وسيظهر لنا مرماه واضحا جليا فيما يلي من كلامه . ولا تغرنا غيرته المعلنة على الامبراطورية العثمانية ، فمن وراء فحوى كلامه تقرأ التطورية الظرفية الماركسية ، كأنه يقول : ما دمنا لا نستطيع طي المراحل التاريخية ، وما دمنا لا نستطيع تجاوز خصوصيتنا ، فلنسالم الدين بل لنستعمله قوة بها نتحرر أولا .

قال بعد الذي سبق : « نفس هذه المدرسة الفكرية بمجرد أن تظهر في أوروبا في القرن السابع عشر تصير أعظم عوامل الرقي والحضارة (يقصد دائما مدرسة القومية) وحين يطرحها مفكرنا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نرى فجأة إلى أية نتيجة يؤدي انتصارها . فإذا بقوة الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد حاصرت النمسا وطوت كل أوروبا الشرقية تحت لوائها ، وشرعت في إلقاء أوروبا الوسطى والغربية في المانش ، نجد نفس هذه القومية ، وهي مدرسة فكرية إنسانية وتقدمية ، وأنا شخصا أو من بها إيمانا راسخا ، نجدها حين طرحت في ذلك العصر ، وفي ظل تلك الظروف ، وحين واصل مفكرون - وكلهم كانوا تحت تأثير مفكرى أوروبا تقدميين وقوميين - نفس هذه الحركة لنجدها قد صارت بعد عشرين سنة ، أى أقل من ربع قرن ، سببا في أن تتحلل تلك القوى العظيمة للإمبراطورية العثمانية ذات القوة الإسلامية الشرقية التي كانت تخنق أوروبا ، فإذا بها تتحلل من الداخل ، ثم تتمزق إربا ، وتصير كل إربة لقمة لها مذاق الملبنى في فم الغرب . » .

هذا على الأقل يسرد التاريخ بلا تحيز ويعترف بفضل الإسلام في انتصار الدولة العثمانية وتماسكها . ولعل عجمته ، وهو الإيراني ، جنبته التعصب للقوميين العرب ضد الشطر المهم من تراث الإسلام ، تعصب قوامه لديهم الوقوف مع العروبة وإسلامها لا غير .

وهو أوسع منهم تراثية إذ يعتبر من أمجاده كل أمجاد المسلمين عرباً وعجماً . ترى أذلك فحسب لأنه عجمي ؟ اسمعه ينتقد المغريين ويشير إلى محدودية الفكر المستورد وعدم صلاحيته لبلادنا ، وتساءل معى عن كنه التمزق الذى يحس به ، وهو المؤمن الراسخ الإيمان بالقومية ومدرستها ، أمام فشل القومية فى البلاد الإسلامية .

قال : « ما أريد أن أخلص إليه هو : نحن المفكرين الذين نفكر مثل مفكرى أوربا تماما ، وننسم بنفس سماتهم نختلف عنهم . فهم قد دققوا أخذ حقائق عصرهم وتاريخهم ومجتمعهم واحتياجاته ، واتسموا على هذا الأساس وتحركوا وعملوا على هذا الأساس .

« أما نحن فدون سند من العصر ، ودون سند من مجتمعاتنا ، ودون سند من ثقافتنا ، ودون معرفة بالظروف الاجتماعية والعصر التاريخي ، وأوضاع شعوبنا وأحوالهم ، أخذنا خصيصة واحدة من خصائصهم ، واحدة فحسب ، وعملنا بها ، فأدت إلى نتيجة عكسية فى كل مكان . وذلك لأن القضايا الاجتماعية والقضايا العينية محلية ليست كلية » . (5) .

هذا هو طرح الإشكالية العويصة التى تعرضت أمام المثقفين المسلمين الإصلاحيين ، وأمام القوميين ومنهم مسلمون ، وأمام العلمانيين وهو قلما يعلنون إلحادهم إن كانوا ملحدين ، إلا أن يكونوا دجاجلة مكشوفين مثل مؤلف كتاب « التراث والتجديد » . إشكالية عويصة هى إشكالية التراث والأصالة والتحديث ، عرضت الأفكار ، ووجهت الجهود ، وغذت الخصومات البرزنية بين المثقفين ولا تزال تغذى .

أما هذا فقد انتهى إلى الاعتراف المبرهن عليه تاريخيا بفشل القومية ، لا ينكر ذلك الفشل الإيديولوجى والعسكرى إلا مكابر . لا يكابر هو ، لكنه لا يهتدى إلى علاج غير قانون الواقعية التراثية . وفحواها ومفهومها أن لكل مقام مقالا ، ولكل طور تاريخى إيديولوجية تناسبه ، وأن كل كلام لا يصح إلا فى « جغرافية كلامية » حسب عبارته . شريعتى لا ينطلق من أن هناك حقاً وباطلاً كما صرح بذلك ، بل هى ظروف إجتماعية ، ومراحل تاريخية ، وخصوصيات قومية لا بد أن نصانعها ونماشىها إلى أن تتاح الفرصة لتطبيق الحقائق العلمية التى تؤمن بها إيماناً راسخاً .

(5) المصدر السابق ، ص . 63 - 64 .

الفصل الثالث

جذور العلمانية

الفصام النكد

هكذا يعبر سيد قطب رحمه الله عن انفصال الدولة عن الدين فى تاريخ المجتمع النصرانى ، هذا الفصام الذى تبناه بعض مثقفى ذرارى المسلمين تبنيًا تجاه الإسلام .

فصم الشيء بمعنى قطعه بدون إبانة ، أى بدون انفصال تام . وقصمه بالقاف إذا قطعه وأبان بعضه عن بعض . وقد وردت كلمة « نكد » فى كتاب الله العزيز فى قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ (1) . قال الراغب الأصفهاني رحمه الله : « النكد كل شيء خرج إلى طالبه بتعسر . يقال رجل نكِد ونكَد (بفتح الكاف وكسرهما) وناقة نكداء طفيفة الدر صعبة الحليب » .

هذا نبت نكد أعسر ظهر بيننا ساقه وزهره وثمره ، بعد أن أودعت بذوره وسقيت جذوره فى عقول أبنائنا ونفوسهم بفلاحة الغزو الثقافى وسقى التعليم المنفصم . وترى أن أعداء الإسلام من بنى جلدتنا لا يعترفون جهارا بالانقطاع والانقسام إلا فى النادر . فهم يتمسحون بالإسلام . بأسلوب أو بآخر . فكلمة فصام أليفة ، والنبت النكد فىنا يتوالد ، لا هو منا فأنس إليه ، ولا هو يعلن هويته الإلحادية مخافة البيئونة عن الجماهير المعبودة . وحول هذه النقطة تدور جهود التليفق الإيديولوجى وتدور الإشكالية العسيرة النكداء ، إشكالية الأصالة التى يريدونها قومية ، وتراثية وكل ما تشاء إلا أن تكون إسلامية حقا وصدقا ، ويتوقون إلى الحداثة فلا يرون لها سبيلا إلا العقلانية الملحدة منهجا والثورة على الدين لاجتثاته من أصله طريقا . وقد بدأت هذه الناقة القليلة الخير تدر ، بل تفرز إيديولوجية تداهن الدين وتراوغه على رقعة « جغرافية الكلام » كما رأينا آنفا .

لا بد لنا من إطلالة على تاريخ « الانفصام النكد » لنعرف الآليات الفكرية فى سلاح الإلحاد ، كيف نشأت وكيف تركبت وكيف حاربت النصرانية وتحاربها . وبذلك نعرف كيف تشتغل تلك الآليات فى خلايا نبتنا الأعسر .

(1) الأعراف : 57 .

نشأت تلك الحرب على دين النصرانية لمقاومة الكنيسة ونظامها وكهنتها الذين استغلوا الدين المحرف لأهداف تعسفية منحرفة . هذه هي إستراتيجية المواجهة بصفة عامة . ثم جاء الإلحاد المفلسف لينازع فى أصل الدين ويحارب « أفيون الشعوب » من منطلق طبقي جدلى . نرجع إلى هذا إن شاء الله بعد أن نستعرض شيئا من التاريخ .

★ ★ ★

الفاسقون

إن الكلمة الحق في النصرانية والنصارى هي ما جاء عن الله عز وجل . قال عز من قائل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب . فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل . وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتيناهم آياتنا فمنهم من آمنوا ومنهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢) .

كانت بعثة سيدنا عيسى عليه السلام حلقة في سلسلة الوحي ، وكانت رسالته تذكيرا لما تركه ونسيه الفاسقون من الأمة الموسوية من دين الله تعالى . ومن كل أمة كان مهتدون ، وكان كثير من الفاسقين . وتكرر الآيات الكريمة ذكر الفسق وذكر الكثرة . وإخبار الله عز وجل عن كثرة الفاسقين من أتباع سيدنا عيسى عليه السلام تشمل تاريخ النصرانية بطولها ، لا يقتصر الإخبار الإلهي على فترة ما قبل البعثة المحمدية . هذا الفسق الكثير هو كان سبب ثورة الفطرة الإنسانية على الكنيسة ، وهو بالتالي كان سبب مولد الدعوة الإلحادية العلمانية التي تطورت في تلك البيئة ، واستوردتها إلى أرضنا رياح الجاهلية التي لا تزال تعصف . فكيف كان ذلك ؟ .

إن الله عز وجل شهد بما آتاه من رأفة ورحمة لأتباع كلمته ورسوله عيسى عليه السلام ، وبين تفريطهم في الرهبانية التي قصدوا بها خيرا . كانت الدعوة العيساوية تجديدا لدين الله اصطدام « بالكنيسة اليهودية » التي عمرها الأحبار الفاسقون كفرا وتحريفا وظلما وقسوة . وكانت الأمة الإسرائيلية تحت وطأة الاستعمار الروماني يومئذ . فظهرت الرأفة والرحمة تكذيبا لقسوة الأحبار الأنجاس ، وكان الانزواء عن المجتمع الوثني الروماني وعن ثقافته السائدة وما استلزمه الانكفاء على الذات من تراحم أخوي . وظهرت المقاومة السلبية في المجتمعات النصرانية قبل رفع عيسى عليه السلام وبعد رفعه ، فكان القمع

(٢) الحديد: ٢٦، ٢٧ .

الوحشى من جانب السلطات الرومانية شاهدا على أن الأمة المؤمنة يومذاك كانت خلية تمر على السلطة فى جسم الإمبراطورية .

لا ندرى متى ظهر شعار « اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فهو شعار تصالح مع الدولة ، وإن كان النصرارى ينسونه للمسيح عليه السلام ، دامت المجازر فى صفوف المؤمنين برسالة السيد المسيح عليه السلام ، رسالة الإستلام ، ثلاثمائة سنة . مجازر فظيعة تدل على مدى خنق قيصر وغضبه أن يظهر فى الأرض سلطان غير سلطانه . وقد وصف الله عز وجل لنا مقتلة فظيعة من تلك المجازر فى سورة البروج حين رُمى المؤمنون فى لهب الأعداء . وقول الله عز وجل يبين سبب ذلك الاضطهاد : ﴿ وما نقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ﴾ (3) . كان النصرارى الأولون إذن شجى فى خلق الدولة القيصرية ، وكانت دينونتهم لله العزيز الحميد تشير حفيظة الدولة ونقمتها .

أثناء هذه القرون الثلاثة عاش النصرارى فى السرية والتخفى ، وعاشوا تحت السياط .

كل من عرف التحزب لله عز وجل ضد الدولة ، وعرف ظروف الاضطهاد ولو فى حدود لا تبلغ معشار التحريق فى الأخاديد وعرض الأجسام العارية للسباع فى مسارح روما ليتفرج الرعاع يتصور فرص التحريف والانحراف ، ويتصور الأقلية المؤمنة المغلوبة وهى تعاني ذلك الاضطهاد الطويل . مجتمع مؤمن اكتنفه الإرهاب ، وسلكه فى أغلال الاستعباد منذ ميلاده جهاز وحشى . لا جرم أن يتعرض الدين السرى المستضعف لكل أنواع التزييف . لا جرم أن يفسق عن الدين ، قبل صلحه مع الدولة ، طائفة تحت تأثير الجهل لقلة وسائل العلم والاتصال ، وطائفة أخرى تصيد فى الماء العكر . بدأ الفسق من ميلاد الدعوة .

وبالمقارنة ، فالإسلام عز منذ نشأته ، لم يعرف الاضطهاد إلا مدة ثلاث عشرة سنة ، وكان اضطهادا فى حدود لوجود العصبية القبلية التى حمت الرسول ﷺ وحمت كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم . ثم إن الرضا الك . ﷺ قاد الجهاد . وعلم الدين وربى

(3) البروج : 8 ، 9 .

الأمة ، وأسس الدولة ، فما لحق بالرفيق الأعلى إلا والقرآن مكتوب محفوظ ، والولاية بين المؤمنين هي الرباط في المجتمع ، والشريعة الإسلامية هي القانون السائد ، والدولة الإسلامية منتصرة ، والقيادة الإسلامية ممكن انبثاقها في الأمة بالشورى ، ومنهاج النبوة واضح سلكته الخلافة الراشدة .

هذه المقارنة بين ميلاد الدعوتين الكريمتين مهم جدا . وإذا كان الله عز وجل قد تأذن بحفظ القرآن الكريم وبصيانة هذا الدين ونصره ، فإن من حفظه تعالى أن هيا أسباب الصيانة في فترة الميلاد حتى صلب عود الدين واكمل الرجال الذين حملوا الدعوة بعد موت الرسول ﷺ .

فإن كان ظهر في هذه الأمة المحمدية فاسقون ، وقد كان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن فسقهم هذا لم يكن فسق تحريف لأصول الدين ، وكل المحاولات في هذا الباب فشلت وما كان لها غير الفشل ، لأن أصول الدين ثابتة . وجزى الله عنا رجال الحديث والفقهاء وسائر العلماء والأئمة الذين جاهدوا في الله حق جهاده .

ما كان من فسق في هذه الأمة فلا ترجع أصوله لفترة الميلاد، لكن إلى فترة لاحقة . لا شك كانت دعوات ضد الحكم الخلفي الراشد كدعوة الخوارج ، ولاشك كانت دعوة التشيع ضد الملك العاض الأموي فما بعد . لكن المذهب الخارجي ليس تحريفا للدين، والمذهب الشيعي إن جادل في أصول الحكم فإنه لم يجادل - ما خلا الغلاة الفاسقين - في أصول الدين .

نرجع إلى كل هذا إن شاء الله . ونسجل هذه النقطة المهمة فيما يرجع لاختلاف ميلاد الدعوتين لنشير إلى أن الذين يخاصمون الإسلام من منطلق خصام غيرهم للنصرانية إنما يشهد تقليدهم الأعمى بجهلهم وزيف نياتهم .

★ ★ ★

الوصول الأنكد

من المعقول أن نعتبر السبب الأول الذى أدى إلى الفصام النكد آفة أنكد من الفصام نفسه . النبتة النكددة نمت على أرضية أنكد منها وألعن .

كان الوصول بين كهنة الدين وطواغيت القيصرية المستبدين أصل البلاء . تزوج فسق الفاسقين بطغيان المستكبرين فولدا النبتة العسرة الملعونة . وحيثما تم هذا الزواج الغاشم استغل الدين وحرف الكلم عن مواضعه ، واشترى بآيات الله الثمن القليل . حدث هذا فى بنى إسرائيل بعد نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق . وحدث بكيفية أجلى وأوضح فى مهاد النصرانية ، وحدث فى تاريخ المسلمين بشهادة سيد المرسلين ﷺ . شهادة حذرت من الفتنة قبل حلول أجلها . نرجع إن شاء الله لفتنة المسلمين بالوصول الأنكد فى فصل « الفتنة » قريبا .

دامت سيادة دولة اليهود بعد تأسيسها على يد سيدنا موسى عليه السلام قرابة السبعة قرون ، تميز أثناءها فى القرن العاشر قبل الميلاد خلافة نبي الله داود عليه السلام ، والملك النبي المبارك الفذ نبي الله سليمان عليه السلام . وما زالت أنبياء الله قبل الخليفتين وبعدهما تبعث لتذكر بنى إسرائيل بميثاق الله عز وجل . فكان النبي فى وقته هاديا واقفا إلى جانب الملك يسدده ويأمره وينهاه ، بل لا يكون الملك ملكا إلا برضى النبي . وقد قص الله عز وجل علينا أحسن القصص كيف طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ، وكيف جاء الوحي بتملك طالوت ، وكيف اعترض بنو إسرائيل ، كعادتهم ، على أمر الله عز وجل ، ثم كيف تخاذلوا عن القتال فى سبيل الله مع طالوت كما أمرهم الله تعالى ، ثم كيف انسلوا لوإذا إلا فئة قليلة من بينها داود الذى فاز برضى الله لما قتل جالوت فآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، والله ذو فضل على العالمين .

ليس معنا علم من الكتاب بما حدث بعد انشطار ملك بنى إسرائيل إثر وفاة سليمان عليه السلام إلى مملكة يهوذا فى الشمال ومملكة أورشليم (القدس) جنوبا . هل كان الله عز وجل يبعث نبيا واحدا أم نبين . كان الوصول مبارك : نبي من أنبياء الله عز وجل

وملك مقيد بالدعوة . لكن الأمة اليهودية الخائنة قتلت الأنبياء بغير حق وعصت أمر الله فاستحققت اللعنة من عند الله عز وجل ، وتأذن الله تعالى بإخزائها إلى يوم القيامة ، وهو فاعل ما وعد به سبحانه .

أَسْرَ بُخْتَصَر (نبو خود ونصور الثاني) ملك الآشوريين بنى إسرائيل من أورشليم سنة 587 قبل الميلاد ، ثم بعد رجوعهم من الأسر ومكثهم في الأرض المقدسة 600 سنة أخرى ينجسونها طردهم الرومان . فمنذئذ تشتتوا في الأرض ليعيشوا أقليات محتقرة لسوء أفعالهم . فكانت القرون الخمسة والعشرون منذ الأسر الأول كلها دسائس وتآمرات وفسقا وتحريفا . هذه الظروف التاريخية تفسر للعقلاني ما وراء حركة التاريخ من إخزاء الله سبحانه وتعالى لطائفة حادث الله وقتلت أنبياءه . خمسة وعشرون قرنا من التآمر على البشرية ، ومن التحريف والفسق في أعشاش الكيد ومصارف الربا وبيع السحر والخرافة وحياة القذارة وأخلاق القرودة والخنازير .

إلا أنها هنا مجرد حكاية لما وصف الله عز وجل به تلك الأمة الملعونة . ليس ما أكتبه تشفيا وانتقاما لهزائم العرب أمام الدولة الملعونة . كتاب الله حق دائم أبدى ، ولعنة الله أمة القرودة والخنازير آيات تتلى وعبادة . وبحث في ثقافات الأمم هل تجد تعاليم أشأم وألأم من تعاليم « فقهاء » اليهود في التلمود (٥) .

أما الدعوة النصرانية فإنها عاشت ثلاثمائة سنة قبل أن تلتقى بالقيصرية . ذلك اللقاء الذي كانت فيه المهادنة والتفاهم وتبادل المصلحة بين كنيسة مؤسسية وبين قيصرية حاكمة . وصال لا تزال آثاره بادية اليوم على شكل امتيازات الفاتكان ودبلوماسيته وتعاليمه فيما يخص السياسة العالمية ، زيارات الباب لأتباع الكنيسة زيارات تكلؤها الدولة وترعاها أنى حل .

كانت الدعوة والدولة في بنى إسرائيل كتلة واحدة في مواجهة دائمة مع شعب رافض لدين الله . في تاريخ النصارى كانت الدعوة يتيمة على مدى ثلاثة قرون ، فلما تنصر قيصر الروم قسطنطين سنة 306 للميلاد ضم الكنيسة المضطهدة إلى أحضان

(٥) اقرأ كتابنا « سة الله » .

الدولة ، واصطنع الأساقفة ، وقربهم ليكونوا سنداً للحكم . ومن ذلك العهد بدأ الوصال الأنكد الذى أدتنا إلى دراسته تأملاتنا فى الفصام النكد . ومن ذلك الوصال تلقحت أزهار الفسق لتنعقد ثمراً إلحادية نعانى مرارتها فى دار الإسلام على شكل علمانية هى اليوم وغدا خصم الإسلام الأول . لنا مع القومية من حيث كونها قومية لقاء ، ولنا مع الترائيين إن لم يكونوا من مدرسة النفاق لقاء . أما إذا جاءت القومية والتراثية تسران كفرا فلا لقاء .

من أجل هذا نطيل النظر فى منابع العلمانية وتاريخها ، عسى ينصف العقلانيون من أنفسهم فيعالجوا معنا فى حوار هادئ هذه « العقدة » العلمانية التى غص بها مثقفو الغرب وفلاسفتهم فجاء تراجع الفكرة فحولوها إلى هذه الديار ، فألبسوا الإسلام لباس الكنيسة ، وتخيلوا للإسلام كهنوتاً وتحكما فى الدين لا وجود لهما . نعم كان لعلماء القصور الأثر الرديء فى تاريخنا ولا يزال لهم . وكان لسكوت علمائنا عن السلطان نتائجه السلبية . كل هذا نرجع إليه إن شاء الله . لكن شتان ما بين التاريخين والوصالين .

★ ★ ★

من هم النصارى ؟

مرت النصرانية بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام من أيدي دعاة إغريقيين ، فامتزجت فيهم بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، كما تلبست بالجمالية الوثنية اليونانية . حتى إذا دخلت النصرانية في طور سيادتها بين أحضان القيصرية الرومانية تبلور ذاك الاتجاه فأعطيا للنصرانية البابوية روحها وجسمها : تأليه المسيح عليه السلام وعبادة التصاوير .

في القرآن الكريم نجد أن الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام حواريين ومؤمنين ، لكننا نجد تسمية « النصارى » مقرونة بتأليه السيد المسيح عليه السلام . لذلك نكون جانباً الحق إذا سميناً النصارى مسيحيين ونسبناهم نسبة زور إلى رسول معظم من رسل الله . النصرانية كفر ، بهذا شهد القرآن . والذين قالوا « إنا نصارى » هم أقرب إلينا مودة . فمعنا من آيات الله عز وجل ما يزر حوارنا مع النصارى تحت ظل الأمل الوارد في قوله تعالى بعد ذكر المودة القريبة : ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكثبنا مع الشاهدين ﴾ (4) أمل وشرط . أمل أن يلحق نصارى اليوم والغد بالقسيسين والرهبان الذين وردوا على رسول الله ﷺ فسمعوا ما أنزل عليه فآمنوا فكانوا مع الشاهدين .

إن حرصنا على الحوار مع النصارى قد يكون داعيه السياسى معقولا ، لكن داعيه الإسلامى هو الأصل . وذلك أن نبلغهم الدعوة رجاء أن تكون آثار الرهبانية والرأفة حافزا للصادقين منهم على الإسلام . إن دعوة النصارى « المبشرين » وأجهزتهم وأموالهم ومؤسساتهم فى عقر دار الإسلام تحديات مؤلمة . وجودها وأساليبها واستغلالها لفقر أمتنا . وتفريط الحكام علي رقابنا . تلك التحديات تنادى على تعبئة إسلامية تنازلهم فى الميدان . لكن أصل الإسلام أن يبلغ ، أن يهجم ، أن ينطلق من إيجابيته الجهادية . ومسؤوليتنا فى جهاد التبليغ تقتضى أن نعمل إلى أصل البلاء كله ، بلاء الإلحاد والعلمانية ، فنحاربه كما يحارب رجال الإطفاء النار بضرب جذور الحريق .

(4) المائدة : 58 .

إن مسؤوليتنا في تبليغ الدعوة للنصارى ينطق بها الحديث الشريف الذى رواه ابن منده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى رجل من هذه الأمة ولا يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا كان من أهل النار » .

أسمع الناس ، نصارى وغير نصارى ، بدعوة النبى ﷺ ؟ إنهم اليوم لا يسمعون عن الإسلام إلا شتم أعداء الإسلام للإسلام . ما بلغهم الخبر الحق ، ما بلغناه نحن . وهم يباطلهم يجوبون أقطار الأرض ، ييشرون بألوهية البشر ، ويعلمون الناس فى مجاهل إفريقيا وفى عقر دارنا فى أندونيسيا وغيرها عبادة الأصنام ، ويطيبون المريض ، ويطعمون الجائع ، ويؤسسون الجامعات : دولة عظيمة فى الأرض هى دولة التبشير النصرانى . وإن نزال العلمانية والإلحاد و« التبشير » معركة واحدة ، معركة شمولية . وبدءُ المعركة أن نعرف أصول البلاء وقواعده ، وروافده . وإلى هذا نرجع بعد هذا الالتفات .

إنها تجارة فى الدين ، سننظر إن شاء الله فى الفقرات التالية إلى مظاهرها التاريخية ، فسبق القلم هنا بالحديث عن تجارة الكنيسة التبشيرية فى أرواحنا وضمنا ومصيرنا .

★ ★ ★

البابوية والتجارة فى الدين

إن فى كتاب الله تبارك وتعالى إدانة للإتجار بالدين وشجبا له . قال عز من قائل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ . وفى هذا التذكير تحذير لنا أيتها الأمة المحمدية أن نبذ الدين كما نبذه من قبلنا من أهل الكتاب ، وأن نتجر بآيات الله .

ولئن اتجر أحبار اليهود فى آيات الله فحرفوها ومارسوا السحر ، فإن أحبار النصارى أتيح لهم أن يمارسوا التجارة فى الدين تفصيلا وجملة : إذ أن المؤسسة البابوية تعاملت مع الدولة ، تارة من موقع قوة وطورا من موقع تبعية ، كما تعامل القساوسة فَمَن فوقهم من الأفراد . الكنيسة تبيع الإمبراطورية سندها فتقتضى الثمن ضياعا ومتاعا ونفوذا وتقاسما للسلطة . والقساوسة ورؤساؤهم يبيعون الأفراد « مغفرة الذنوب » و « البركة » والسمعة الاجتماعية بالأصفر الرنان .

كان الحقد التامرى الدفين فى صدور اليهود ، وظلمة الغربة ، ويأس المنفى ، والانكماش على الذات ، واختمار الأوهام فى تلك البيئة ، وتراقص الآمال أمام الأقليات اليهودية المهجورة اجتماعيا ، دوافع لسعى اليهودى إلى الاحتياى على الدرهم والدينار لاستقطاب ثروات المجتمعات المضيفة ، ولسعى كاهنه الساحر القارئ حافظ الأسرار لتوفير النصوص والفتاوى المسيحية لسرقة « الكويم » الأجنبى غير الإسرائيلى ، المعترى عندهم حيوانا لا حرمة له . والسحر إلى هذا كان دين « الكباليين » ، وحساب الأعداد ، والتنجيم ، وما تدره هذه السلطة من أرباح .

لكن لا نجد عند اليهود التجارة الكبرى التى أتاحتها البنية الكنسية لدين النصارى . فمنذ جلوس قسطنطين على عرش روما الوثنية لم يلبث هذا القيصر أن أعلن اعتناقه لدين النصرانية الذى كان عندئذ قد أصبح دين « جماهير » واسعة . كان هذا سنة 306 ، فما كانت سنة 325 حتى انعقد مجمع نيقيا حيث إتفق أساقفة الكنيسة على طرد أصحاب المذهب الأريانى الذين كانوا يقاومون عقيدة تأليه المسيح عليه السلام . واختار الأساقفة

الأنجيل الأربعة التي راقت اتجاههم لتكون هي النصوص الرسمية من دون الأنجيل التي ورد فيها ذكر نبي الهدى الذى بشر به المسيح عليه السلام مثل إنجيل برنبا . وفى سنة 787 انعقد المجمع الثانى فى مدينة نيقيا ليثبت مشروعية عبادة التماثيل ويطرد من كانوا يقاومون عبادتها . وهكذا استمرت مجامع الكرادلة والأساقفة تحت سلطة البابا المنتخب تمارس سلطتها فى التشريع ، وتبنى ما تراه من المعتقدات ، وتؤول ، وترسم الاتجاه الدينى والسياسى للكنيسة . لا يحد من سلطتها نصوص هي نفسها اختارتها من بين النصوص العديدة التى ما منها كلمة واحدة ثبتت عن المسيح عليه السلام بالسند الثابت المنقود نقدا علميا كما هو الشأن فى نصوص الحديث الشريف . وأقدم ما بأيديهم من هذه النصوص إنما هو ذكريات كتبت بعد رفع نبي الله عليه السلام بأكثر من سبعين سنة . وهكذا أمكنهم أن يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله كما يشاؤون .

بدأ الفاسقون ، كما وصفهم الله عز وجل فى كتابه ، فى ممارسة التحريف والاتجار منذ عهد قسطنطين . يقول « درابو » : « دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرها بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون ، ولم يخلصوا لها يوما من الأيام . وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره : 337 » (5) .

وبينما كانت طائفة من الرهبان على طول تاريخ النصرانية يمارسون تعذيب الجسم بجلد أنفسهم وبكل أنواع الإرهاق رجاء التغلب على نوازع الشهوة ، وهذه بقية من آثار الرهبانية التى ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، كان رؤساء الكنيسة يمارسون المتعة واللذة والفسق فى أنحبث مظاهره .

تجد فى تاريخهم الراهب ماكارىوس الذى نام ستة أشهر فى مستنقع عفن ليقرصه الذباب السام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد . يوسبيوس كان يحمل قنطارين . يوحنا « عبد » ثلاث سنوات قائما على رجل واحدة لم ينم ولم يقعد طيلة السنوات

(5) كتاب « ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين » ، لأبي الحسن الندوي ، ص : 185 ، دار الأنصار القاهرة .

الثلاث . رهبان عاشوا عراة إلا من شعرهم الطويل يمشون كالأنعام على أربع ، يقتاتون بالحشائش . أبراهام لم يمس الماء وجهه خمسين سنة . رهبان كانوا يعدون غسل الوجه حراما . ورهبان كانوا يتجولون فى البلاد يخطفون الأطفال ليربوهم تربية رهبانية .

هذه الذهنية الرهبانية غطت تلك القرون بظلام كثيف من الجهل ، فتأثرت البيئة الأروبية بها . كانت المرأة عندهم حيوانا ورجسا وشيطانا . وكانت الخرافات التى ارتبطت فى الأذهان بذكر « القرون الوسطى » هى نمط العيش وفلسفة الحياة . كان كبيرا تأثير الرهبانية الفارة من الدنيا السادرة فى معتقدات « الخطيئة الأولى » و « الخلاص » و « التكفير » عن تلك « الخطيئة » الوهمية التى تلف البشرية جمعاء وتعرضها فى زعمهم الخرافى لغضب الله وانتقامه . وعاشت عامة الشعوب النصرانية فى هذا الأفق العقدى : العقول معتمة ، والإرادات مكبلة ، والمتعة الجسمية رجس ، والبعد المادى للحياة أحبولة شيطانية .

★ ★ ★

أرض الجنة فى المزاد العلنى

فى الجانب الآخر ، بينما الرهبان فى أديرتهم يعانون الجوع الإرادى ، وقهر النفس ، انطلق القساوسة والأساقفة والبابوات ورؤساء الكنيسة إلى جانب الأباطرة والقيصرة وأمراء الإقطاع يقطفون زهرة الحياة الدنيا حيث لا تراهم أعين الشعوب المرهبة .

يقول الراهب جروم «JARUM» : « إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين . وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما ، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال . وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون الوظائف والمناصب كالسلع . وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة ، وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ! ويرتشون ويرابون . وقد بذروا المال تبذيرا ، حتى اضطر البابا «إنوسنت» الثامن (قلت : معنى إنوسنت : البرىء !) أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا «ليو» العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المرتقب (من بعده) سلفا وأنفقه . ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم » (6) .

قال الله عز وجل يندد بالنصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ (7) . وقد فسر النبى ﷺ الآية بأن عبادة النصارى أحبارهم ورهبانهم تعنى طاعتهم لهم فيما يشرعون من الدين . وبالفعل ، كانت للكنيسة السلطة المطلقة فى هذا المجال . وكانت الشعوب المرهبة تعيش تحت إرهاب الواعظ المزمجر وتحت سوط « اليد الدنيوية » يد الجلاد الذى كان ينفذ أحكام المحاكم الكنسية . وما عهد « التفتيش » وما واكبها من سوم البشر طيلة قرون سوء العذاب إلا صفحة من أشد صفحات التاريخ البشرى سوادا . وما كانت مؤسسة التفتيش فى قطر من الأقطار ولا فى عهد من العهود أشد بطشا وأوسخ همجية مما كانت عليه ضد المسلمين فى الأندلس بعد سقوط غرناطة

(6) المصدر السابق ، ص : 191 .

(7) التوبة : 31 .

آخر معقل من معاقل الإسلام هناك . أعادها الله العلى القدير .

وتلك فترة لا نريد الالتفات إليها فى هذا الكتاب الذى ينظر إلى المستقبل الزاهر بإذن الله جلّت عظمتة وتبارك اسمه ولا إله غيره .

وأدهى من تعذيب البشر وملاحقة المستضعفين التبليد الذى واكب ذلك ، حتى تخدر حس الناس بالقيم ، وحتى أصبح الناس لا يعرفون قبىلا من دبير أمام تناقص قاداتهم . الرهبان فى واد ، ورؤساء الكنيسة فى واد ، وأولئك يعترفون بسلطة هؤلاء ، وما للشعوب سوى الامتثال والسياط والجهل . قال « ليكى » يصور ما كان عليه المجتمع النصرانى من التناقص فى تلك العهود : « إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم . وكانت الدعارة والفجور ، والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمرء ، والمسابقات فى زخارف اللباس والحلى والزينة ، فى حدتها وشدتها ، كانت الدنيا فى الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى . وإن المدن التى كان فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور . وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والرهمللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحداث والفضيحة بين الناس . وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه آمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان . لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب ، حتى فاق هذا العصر فى ذلك عصر القياصرة » (8) .

★ ★ ★

(8) المصدر السابق ، ص : 190 . وقد استفدنا منه فى هذه الفقرات .

اضطهاد رجال العلم

كانت الكنيسة فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى قد اشتد عودها وأصبحت منافسة للإمبراطورية . بل إنها أثبتت سيادتها ، حتى إن الإمبراطور هنرى الرابع اضطّر أن يمثّل بين يدى البابا فى قلعة كانوسا متضرعا مستغفرا . وأصبح يضرب المثل لكل من انهزم أمام خصمه واضطر للخضوع ، فيقال : « ذهب إلى كانوسا ! » .

وكان من الممكن بعدئذ للكنيسة أن تستعمل سلطانها الواسع ونفوذها السياسى والاقتصادى والمعنوى ، ووجودها على جميع المستويات فى كل أنحاء أوربا لكى ترفع من مستوى الشعوب وتكون عامل تقدم وتحرر . ولكن لسوء حظ النصرانية ، ولسوء حظ الأجيال اللاحقة ، هيأت الكنيسة جو الظلم والاضطهاد الذى ترعرعت فيه جراثيم الأوبئة الاجتماعية وخرافية الفكر . ثم تفاقم فسادها وإفسادها رغم تقلص نفوذها فى القرون اللاحقة ، حتى لفظ مفكرو أوربا الكنيسة وكل ما تمثله ، وارتدوا إلى المادية الوثنية التى اتخذت أشكالا فلسفية وسياسية ، إلى أن قامت الثورة الفرنسية عام 1789 بكسر الغل المميت الذى كان يخنق العقل والنفس .

كانت الكنيسة تقاوم العلوم النظرية والتطبيقية التى كانت تأتى من البلاد الإسلامية ، من صقلية والأندلس . فكان الطب العلمى يحارب لترتع الشعوذة ، وبذلك عاشت أوربا قرونا طويلة عاش الناس أثناءها تحت كابوس الأوبئة والطاعون . كانت تعاويز القس تدر عليه أرباحا ، فلم يترك الطبيب ينافسه ؟ وبث الرهبان فى كتبهم أفكارا مخطئة فى مجالات متعددة من مجالات المعرفة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفلك . وليتهم إذ فعلوا ذلك قالوا : « هذا ما وصل إليه علمنا » ! « لكنهم أخذوا يؤيدون هذه الخرافات بحجج « دينية » ويدعمونها بنصوص مأثورة عندهم . فكلما تفتحت عقول الباحثين الأحرار للنتائج العلمية الإسلامية ، وكلما تعلمت تلك العقول النقد المعرفى انكشف تزوير آباء الكنيسة . فلم يكن أمام هؤلاء للدفاع عن سمعتهم وسمعة دينهم الذى ورطوه فى هذه المغامرات إلا أن يكفروا كل من عارض « الجغرافية النصرانية » و « علم الفلك

النصراني « وسائر مسلماتهم . يكفرون علماءهم الأحرار ولو كانت كل البديهييات تؤيدهم .

وعندما اشتد ساعد العقل الجديد ، وانتشرت مبادئ البحث الحر ، ازدادت ضراوة الكنيسة وسلطت محاكم التفتيش على الناس تحرق وتقتل ، وكان حكم الإعدام « بدون إراقة الدم » يعنى التحريق . وقد طبق مثل هذا الحكم على عالم الطبيعة برونو . واضطر غاليليو أن « يقتنع » أمام المحكمة بأن الأرض لا تدور اتقاء ذلك البطش الفاتك . وكان هذا العداء السافر للعلوم ، وهذا الاضطهاد الأسود للعلماء ، أهم الأسباب التي فجرت في الطبقات المتعلمة كراهية الكنيسة وكراهية دينها . وذلك ما أدى آخر الأمر إلى الحل المحتوم ، وهو انفصام بين العقل العلمى والخرافة ، بين البحث الحر والتقليد السخيف لما فى أساطير النصوص ، بين الحياة الحرة والخضوع تحت نير الاستعباد .

★ ★ ★

الإصلاح والتجديد

فى القرن السادس عشر انبعثت مقاومة للاضطهاد الكنسى والفساد الكنسى المتمثل فى البابوية وبيع صكوك الغفران من داخل الكنيسة نفسها . وكان مارتن لوثر القس الألمانى أهم ثائر فى حركة « البروتستانتية » ، ومعناها الاحتجاج . كان « ويكليف » قائد هذه الحركة فى إنجلترا ، « وزونغلى » فى سويسرا ، « وكلفن » الفرنسى فى فرنسا ثم فى سويسرا حيث أسس جمهورية بروتستانتية فى جنيف .

لكن هؤلاء الثوار النصارى لم يستطيعوا التخلص من الجرثومة التى نشأ منها الفساد وتوالد : ألا وهى الدين المحرف . إنما استطاعت الحركة البروتستانتية ، خصوصا فى الإمارات التى تكون اليوم ألمانيا ، أن تتحالف مع أمراء الإقطاع الذين كانوا يرغبون ، لأسباب سياسية ، فى التخلص من سلطان البابا . وبهذا الحلف استطاع المذهب البروتستانتى الذى يسمونه إصلاحا « reforme » أن يحرر الناس من القس وكرسى الاعتراف و « الشفاعة » و « الغفران » وسائر تلك الطقوس . واستطاع أن يصرف الناس عن وجه الكاهن إلى « الإنجيل » مباشرة .

كان لمجرد تحرر البروتستانت من أغلال الكهنوتية أثر فى سلوكهم . فهم معروفون إلى الآن بصلافة وجد ، فلو كان التحرير شاملا عاما ووضع فى أيدي الناس كتاب الله عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم لظهرت الفطرة فى صفائها .

لم يخرج لوثر عن دائرة العقيدة الموروثة وإن خرج عن دائرة السلطة البابوية . فهو وأتباعه بقوا يجولون فى أجواء « الخطيئة » الآدمية ، فى زعمهم الباطل ، التى يحمل كل إنسان من ميلاده وزرها ، وعليه أن ينال المغفرة والخلاص بالانطواء تحت جناح « المخلص » . فالإنسان فى هذه العقيدة السخيفة آثم مذنب لمجرد وجوده . ولا يخفى ما يتولد عن هذا الشعور من تثبيط للإنسان . ويبقى كلفن وأتباعه يدورون مع عجلة « القدر المكتوب » . ويا عجباً كيف صارت هذه العقيدة الجبرية حافزا للبروتستانت على التوغل فى جمع المال بدل أن تدعوهم للتكاسل والتماوت !

كانت حركة « الإصلاح » هذه عبأت خير العقول الكنسية فى الثورة على البابوية ، مواكبة فى ثورتها الحركة العامة للفكر المتحرر . لكنها لم تستطع أن تزيل الآثار العميقة لقرون الهيمنة الكنسية على المجتمع ، بل بقيت هى نفسها رهينة نفس الأفكار . ولم تلبث السلطات السياسية أن استحوذت على مكتسبات « الإصلاح » واتخذت هذا المذهب أو ذاك سلاحاً دينياً فى الصراعات والحروب . العرش الانجليزى استغل وجود تلك « الموجة » حسب التعبير الحديث ليستقل عن الكنيسة فيصبح ملك إنجلترا أو ملكتها رئيس الدولة ورئيس الكنيسة معاً . كان الجو العام بعد فشل الإصلاح يتهيأ لجولة حضارية جديدة ، لجولة مادية تعتمد على العقل وإنتاجه ، وترمى كل القيم الأخرى مع مخلفات الدين الكنسى . كانت النهضة « Larenaissance » قد بدأت فى إيطاليا وريثة المعارف الإسلامية ، ومنها سرت أفكاراً وفناً ونمط حياة لتعم أقطار أوروبا على مدى ثلاثة قرون . كانت رياح التجديد تهب فى اتجاه معاداة الكنيسة وإسقاطها . وبعد تعسف الكنيسة الطويل اضطربت ثورة « الفلاسفة » من أمثال فولتر وروسو اللذان يعتبران الأبوين الروحيين للثورة الفرنسية التى حسمت داء الكنيسة من جذوره .

★ ★ ★

حرب بين العلم والدين

يقول أبو الحسن الندوى ، وقد أحسن أحسن الله إليه ، فى وصف هذه الهبة من جانب الفلاسفة : « هنالك ثار المجدون المتورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حربا لرجال الدين ، ومثلى الكنيسة ، والمحافظين على القديم . ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب . وعادوا الدين النصرانى أولا والدين المطلق ثانيا . واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين النصرانى - وبلغت أوصاف ، البولسية (9) - حربا بين العلم والدين مطلقا . وقرر الثائرون أن العلم والدين ضربتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان . فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى . وإذا ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقَت فى سبيل العلم والتحقق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وحياة مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، اشمأزت قلوبهم ، وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم . » (10) .

لم يكن عند الفلاسفة طلب صادق للحق ، ولم يكن أمامهم مصدر يستقون منه علم الحق ، فنبذوا نبذ النواة الكنيسة ، ونبذوا معها مبدأ الدين نبذا مطلقا . وورث العلمانيون من ذرارى المسلمين تلك الحروب وتلك العداوة وذلك النبذ المطلق .

★ ★ ★

(9) نسبة إلى بولس مؤسس النصرانية الكنسية .

(10) المصدر السابق ، : 195 .

حضارة لا تعرف الله

كانت الولايات المتحدة الأمريكية آخر معقل من معاقل النصرانية . كان شعار : « الله ، الأسرة ، الوطن » يرسم الاتجاه التربوي ، ويلقن للطفل منذ نعومة أظفاره . وكانت الكنائس المنتمية لمئات المذاهب المختلفة تمثل ديمقراطية الدين ، لكنها في أغلبها لا تخرج عن إطار البروتستانتية أو الكاثوليكية وعن أخلاقية « المتطهرين » « المهاجرين » الأولين من إنجلترا الفارين بدينهم من اضطهاد الدولة .

منذ ثلاثة أجيال بدأ الانحدار السريع ، واستحقت « حضارة الكوكا كولا » اسمها ، إذ يرمز المشروب الذي ساد العالم بسرعة إلى القيم المادية الصرفة ، إلى المتعة واللذة ، إلى الفراغ المعنوي والربح السريع الذي أحرزته الشركة التي احتكرت « أسرار » الشراب في مقدمة الشركات المتعددة الجنسية التي هي كنائس العصر ومعابده ومذهبه .

« هت منذ أربعة أعوام ونيف رئاسة كارتر النصراني المخلص لدينه الذي كان ملجأ للضمير الأمريكي ووميضا ظنت أنه ينير لها الطريق بعد أن ادلهم أمامها المستقبل إثر هزيمة الفتنام وفضائح رئاسة نكسون . كانت التفاتة إلى الدين خاطفة ، ثم تابعت الولايات المتحدة طريقها المنحدر لما سمعت صوت رئيسها الحالي ريكن الذي بشرها باستعادة الازدهار الاقتصادي والعزة الوطنية واستراتيجية حرب النجوم . فأمريكا اليوم في مقدمة تيار الانحلال والبطش بالشعوب الضعيفة ، في مقدمة موكب الحضارة التي لا تعرف الله عز وجل .

الحضارة الغربية اليوم تعرت نهائيا عن كل قيمة غير القيم المادية المنفعية المحسوبة عدأ ونقداً أو استثمار وانتظارا . المادية هي دين الديمقراطية الغربية النصرانية اسما كما هي دين الاشتراكيات الشيوعية الملحدة مبداً . دينها جميعا القوة العسكرية ، والتوازن الاستراتيجي ، والمصالح الاقتصادية ، والتسابق إلى المراكز ذات الأهمية الجغرافية السياسية . وفي داخل تلك المجتمعات يتجه الإنسان إلى التمتع الدوابي ، إلى الزنا واللواط اللذين أصبحا أمرا عاديا ، بل نشاطا يحميه القانون ، إلى الجريمة والمخدرات ، إلى « الفن »

وكل ما تعطيه الكلمة من صور الهروب. من الواقع ، حتى إذا استنفذ الإنسان كل ما جاءته به الحضارة المادية من أمن فى المعاش ومن فرص اللذة ، غدا ينتحر بجنون ، ينتحر لينسى فراغه ، لينسى هذا النعيم الدوابى الذى تضحج منه الفطرة البشرية .

أريد هنا أن أنبه نفسى وإخوانى ، ونحن فى محاولة لمعرفة الواقع العالمى معرفة مبصرة لا يكدرها التعصب ولا تلونها الرغبة الذاتية ، أن هذه الحضارة المادية الملحدة الروح والاتجاه لا تزال قائمة ، وأن الإنسان الذى صنعها لا يزال يتمتع بخصال إيجابية نحن أحوج الناس إليها. أفقر الناس منها . وهناك هذا التشبث الرائع بحقوق الإنسان ، وهناك جمعيات يتجمع فيها صفوة الضمير الإنسانى وسط تلك الحضارة التى لا ضمير لها . بدون معرفة المستثنى والمستثنى منه نكون نغر أنفسنا ونرضى الرغبة الصببانية فى تمجيد الذات من خلال تصوير الآخرين بألوان السواد .

يبقى أنها حضارة شيطانية ، فالغرب الديمقراطى تحتضر فيه النصرانية احتضارها الطبيعى . والديمقراطيات الشعبية ، وخاصة الاتحاد السوفياتى ، خنقت الكنيسة خنقا كما خنقت المسلمين ، وأفتتهم وأغلقت مساجدهم وصنعت لهم المفتى السوفياتى المعمم .

وأخيرا اعترفت الدولة الروسية بحرية الأديان فى سياق « إصلاح » جربتشفوف و« شفافيته » تيقناً أن تيار « الانفتاح » الديمقراطى سيجرف الأديان فى بلاد السوفيات كما نجرفت فى بلاد الديمقراطيات النصرانية .

★ ★ ★

جاهلية

هنا وهناك ، فى شرق الجاهلية وعربها ، عم الجهل بالله عز وجل ، واكتسح هذا الجهل كل مجالات الحياة : اكتسح النفوس والعقول والأخلاق والاجتماع والسياسة والقانون . لا يتحرك شىء ولا فكرة فى تلك المجالات إلا والمنفعة هى المحرك ، والجدوى المادية هى الهدف ، وكلمة « اقتصاد » تؤدى هذين المعنيين ، وتلخص المذهب المادى . ومن ضمن الاقتصاد ، وفى سجلاته ، حساب أسلحة التخريب ، وحساب حانات الخمر ، وحساب أوكار الزنا والقمار ، وحساب المبيعات والمشتريات : ما قتل منها الانسان ، وما أفسد صحته ، وما غيم عقله ، وما أنساه وسلاه . الإنتاج من أجل الإنتاج . الإنتاج من أجل الاستهلاك . ارتفاع الناتج القومى ، ارتفاع مستوى المعيشة .

يقول الأستاذ محمد أسد المسلم الوارد علينا من ماضيه اليهودى النمساوى ، وهو خبير من أهلها يشهد بما هنالك : « لا ريب فى أنه لا يزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبدلون جهود القانظ حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم . ولكن هؤلاء شواذ فقط . إن الأوربى العادى ، سواء عليه أكان ديمقراطيا أم فاشيا ، رأسماليا أم بلشفيا ، صانعا أم مفكرا ، يعرف ديننا إيجابيا واحدا هو التبعيد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول المثل الدارج : « طلبقة من ظلم الطبيعة » . إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء . وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة ، والمهندسون ، وكواكب السينما ، وقادة الصناعات ، وأبطال الطيران . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بتكوين جماعات متخصصة مدججة بالسلاح ، ومصممة على أن يُفنى بعضها بعضا حين تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافى ، فنتيجة ذلك تكوين نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العلمية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادى » (١١) .

(١١) « الإسلام على مفترق الطرق » ص ٤٧ - ٤٨ ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين .

وردت كلمة « جاهلية » فى القرآن الكريم مقترنة بالحمية والعصبية . والعصبية القومية اليوم هى الرباط الاجتماعى الذى لا يزال السمة الغالبة عمليا على تكوينات الدول المصنعة . وإن كانت شعوريا وثقافيا تزعم أنها تجاوزت القومية بعد استقرارها وبعد الحروب الدامية ومنها الحربان العالميتان ، التى اصطدمت فيها القوميات .

الجاهلية بعد هذا تحمل معنيين آخرين : الجهل ضد المعرفة ، فهى لا تعرف الله تعالى ، والجهل ضد الحلم ، وهو العنف . بهذا تكون الجاهلية مفهوما عاما لا يصف حالة الجزيرة العربية قبل الاسلام ، بل حالة كل مجتمع توفرت فيه السمات الثلاث : حمية وعصبية تنافيان التحزب لله عز وجل ، ثم الجهل بالله عز وجل ولو كانت المعارف الكونية غزيرة ، ثم ما يترتب على تينك المقدمتين من عنف . ولا مرأى فى أن المجتمعات التى ولدت فيها الحضارة المادية كردة فعل ضد الدين الكنسى ، وولدت فيها الدولة القومية كحقيقة الحقائق السياسية ، وعرفت أشنع الحروب ، وصنعت القنابل الذرية وسائر الوسائل الجهنمية ، هى مجتمعات جاهلية . يرحم الله شهيدنا سيدا قطبا ، فقد كان الصوت الناصح الذى لا يعرف الهوادة حين ندد بالجاهلية وقابلها بالإسلام ، فأوضح مفهوماً كان يتردد تحت قلم أبى الأعلى المودودى رحمه الله .

لكن أين تمر الحدود بين الجاهلية والإسلام ؟ أين يقطع الخيط الفاصل بين الحق والباطل ؟ أيمر عبر الدول ؟ أم عبر الطبقات ؟ أم عبر الأحزاب السياسية ؟ أم عبر المذاهب ؟ أم فى قلب الإنسان ؟ أم فى عقله ؟ أم فى التاريخ ؟

نرجع إن شاء الله لكل هذه المعانى : إنما نضع هنا صوة من صوى الطريق فى انتظار العودة المنهاجية . والله المستعان .

إننا معاشر المسلمين فى أوائل هذا القرن الخامس عشر المبارك ، أمه مستعبدة ، أمة اختلطت فيها القيم بفعل الاستعمار والغزو الثقافى ، وتشعبت أمامها الطرق ، وتأزمت فيها السياسة ، وتأزم الاقتصاد ، وعلت فيها الآراء العلمانية القومية ، واختلفت المذاهب . وكل هذا يهون فى جنب الدعوة المعلنة أو الضمنية للعلمانية ، وبالتالى والتابع المنطقى للإلحاد . فالأسئلة المنهاجية أمام هذا الخطر ، وعلى ضوء ما آل إليه أمر النصرانية ، هى : هل نتحرر ضد الإسلام أم بالإسلام ؟ هل القومية والعلمانية خدنان لا يفترقان ؟ هل العنف ضرورة

للتحرر ؟ إذا كان فُضِدَ من ومع من ؟

إن للإسلام الرسمى الموروث ، إسلام الواجهة ، إسلام أجهزة الحكم الجبرية فى بلادنا ، ارتباطات بأعداء الإسلام فى الخارج ، وارتباطات طبقية فى الداخل ، وصبغة محلية قومية ، ووظيفة تخديرية . وإن تأملا بسيطا لاستعمال « المارشال - الإمام » النميرى للشعارات الدينية كاف أن يقنع كل من لا يعرف من الإسلام إلا إسلام الوجوه المنافقة بأن الدين أفيون الشعوب . كاف أن يقنع من يعرف تاريخ الجاهلية المعاصرة ومدخلها ومسارها إلينا أن « الإسلام بخير » . فما الإسلام ؟ وما الجاهلية ؟ وما الطريق ؟

★ ★ ★

الأصالة الجاهلية

كان الطلاء النصراني الذي اصطبغت به أوروبا قرونا طلاء سطوحيا . وإن تاريخ الكنيسة الحافل بأسماء « الدكاترة الدينيين » ، والإنجازات المعمارية ، والمعابد القوطية المشيدة ، والسلطان الديني الفخم الذي تمتع به البابوات ما هو إلا هيكل تذكاري لواقع حقيقته رهبنة الشعوب وسيادة نظام كهنوتي رأينا بعض صفاته . كانت الجذور الوثنية راسخة في ضمير تلك الأمم ، لم تستأصل النصرانية تلك الجذور وإنما استغلت وجودها . ولم تكن عبادة التصاوير وتآليه المخلوقات وخرافية الطقوس إلا مظهرا لتلك الجذور المتأصلة . الكاهن يقدم « للمصلين » خبزا هو في زعمهم الغريب جسم المسيح ، ويقدم لهم خمرا هي في زعمهم السخيف دم المسيح ، فما خرجوا من كنيستهم إلا وقد أكلوا ربهم وشربوه . والأوثان المنحوتة والمصورة ملء العين أنى توجه النصراني ، في البيوت والأماكن العامة والمعابد .

كل ذلك مما امتزج في أذهان الدعاة النصارى الإغريقيين والرومانيين على مر العصور ، وفي نفوسهم وعاداتهم ، ثم برز وكأنه هو الدين . فلما اكتشف النصارى حضارة اليونان والرومان في عصر « النهضة » انفتحت لهم بحار واسعة لتعود فيها مياه الوثنية وتلتقي تياراتها . واكتشفت النخبة المتعلمة أضرالها في الحضارتين الوثنيتين القديمتين ، واعتمدت على تلك الأصالة لتجذر حربها ضد الكنيسة . فمن الخطأ أن يظن أحد أن الحضارة المادية المعاصرة تستند إلى شيء غير ميراثها الوثني القديم من أثينا وروما . وما بقى من ظلال اليهودية والنصرانية لا يتعدى زخارف ثقافية احتفظ بها للتجميل ، أو عاشت على الهامش . والكنيسة اليوم رغم ثروتها ودولتها هامشية بكل معيار ، بعد طوفان القومية والعلمانية .

الانتماء القومي الذي انعقد دولا قومية في أوروبا حادث لا يتجاوز عمره قرنا ونيفا . لكن جذوره تمتد إلى الاعتراف الروماني بالمواطنة الرومانية ، وإلى صلف الرومان واحتقارهم للشعوب عصبية وحمية هي العنصر الأساسي من عناصر الجاهلية الثلاثة .

العنصر الثانى هو الجهل بالله عز وجل . إنه سرعان ما تبخرت الروحانية الشرقية المنبثقة عن الرسالة المسيحية ، ورسالة سيدنا عيسى عليه السلام هى الإسلام بعينه فيما يرجع للعقيدة ، عقيدة التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والجزاء والعدل بين الناس . سرعان ما تبخرت الروحانية التى عاشها الحواريون والمؤمنون ولم يبق بعدهم إلا مسحة روحانية نسبناها للشرق عموما لنعرف مستقرها الأرضى بعد أن انقطع نسبها السماوى . تبخرت تلك الروحانية الشرقية تدريجيا ، وحل محلها الجمالية الوثنية الإغريقية ، والشعرية الأسطورية الإغريقية ، والطقوس الوثنية الإغريقية . كان الإغريق يعبدون « آلهة » يسكنونهم فى جبل الألب فى خيالهم الأسطورى . كان لهم كبير « الآلهة » يسمى زوس وله زوجات وخليلات ، وكان لكل صناعة وفن ومرفق من مرافق الحياة « إله » خاص ، ولكل بلدة « إله » يحميها ، ولكل أهل خرفة « إله » ناصر ، ويتبارى المثالون والنحاتون فى تجسيد « الآلهة » أصناما لها معابد وسدنه وميزانية . كل هذا ترجمته النصرانية فاعتقدت وجود إله أب ، وابن ، وروح قدس ، وتعلقت أوهامهم بمريم العذراء عليها السلام فألهوها . و عمدوا إلى بعض موتاهم فأحلوه محل « الآلهة » الإغريقية الثانوية ، ومثلوهم وعبدوهم ، ونذروا لهم النذور ، وقربوا لهم القرابين ، واحتمت بهم المدن والحرف . الآن لا تكاد تسمع أو تقرأ أو تبصر فى حياة أوربا الثقافية والفنية إشارة إلا إلى تلك الأصول اليونانية . الألب و « آلهته » وأساطيره وشخصيات خرافاته هى الإطار المرجعى ، لا الكنيسة وشخصياتها . رجعت المياه إلى مجاريها والعهر اليونانى والعري ، وعبادة الجسم ، وتأليه الجمال ، ومقاسات الفن . كل ذلك ينبع الآن من أصله الصافى .

أستاذن القارئ الكريم فى وقفة لتأمل نقطة هى عندى من الأهمية بمكان . هذه « الآلهة » التى عبدها اليونان ، وعبدتها الشعوب الوثنية ولا تزال ، ما هى ؟ وما أصلها ؟ إن هنالك وثنية حية اليوم ، كما كانت دائما فى أفريقيا ، وآسيا ، وأوربا ، وأمريكا الجنوبية . ونضرب الولايات المتحدة الأمريكية الرقم القياسى فى تنوع هذه الوثنية ، وانتشارها ، وتلونها . لا أقصد هنا الوثنية المادية ، وثنية السلعة أو وثنية الجسم البشرى أو ما شابه . أقصد الوثنية الحقيقية ، العبادة ، القربان ، الاعتقاد . دارت الأمور دورتها ، وعادت أوربا وأمريكا جنبا إلى جنب مع الشعوب البدائية إلى الوثنية الأصلية ، ومن أشكالها وثنية اليونان . ما معنى هذه الوثنية وما مبنائها ؟ إننا نحن المسلمين نبرهن عن جهل إن إكتفينا

بالموقف السلبي فى هذا الموضوع ، الموقف الإيجابى أن نفهم وأن نعلم غيرنا . والحق معنا فى كتاب الله عز وجل .

قال الله تعالى يخاطب خلقه من بنى آدم : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِى . هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا . أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (12) . وفى كتاب الله العزيز وصف شامل لإضلال الشيطان بنى الإنسان ، والتغريب بهم ، والوسوسة لهم ، والتزيين والإلقاء . من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فهو يؤمن بالغيب ، ومما غيب عن أعيننا الجن ، ومن الجن شياطين وقرناء . فهذه الآلهة التى كان يعبدونها كفار العرب ويسمونونها اللات والعزى ومناة هى مظاهر مادية من ورائها شياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها . كذلك زوس وفولكان وأفروديت عند اليونان ، ما هى إلا مظاهر لشياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها والعبادة نفس العبادة ، فى أمريكا الجنوبية والوسطى وأفريقيا يسمى التبعيد للشياطين فودو ، وفى مصر والسودان والشرق يسمى زارا ، وفى المغرب يسمى دردبة إلخ .. عبادة الشيطان ، من عهد آدم عليه السلام ، تزامم عبادة الله عز وجل ، والقرآن شاهد . وليس من اختراع الخيال ما ينسبه اليونان وكل عابد للشيطان من أحداث أبطالها ما يعتقدونه آلهة ، بل هو التزيين والإغراء ، والإجلاب بالخيال والرجل ، والاستفزاز ، والوسوسة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز ونسبها للشيطان .

هذه إذن الركيزة الثانية للجاهلية : الجهل بالله عز وجل ، وهو كما نرى فى كل جاهلية تستحق الاسم ، مثل جاهلية العرب العتيقة وجاهلية اليونان ، جهل مركب . إذ يعتقد الجاهليون أن لهم آلهة حقا ، يذبحون لها ، ويسمعون منها أو يترجم عنها الكاهن ، ويناجونها ، وتترأى لبعضهم ، وتخبرهم بواسطة الكاهن أو فى منام أحدهم ويقظته بأحداث .

لا أدرى ما نوع العلاقة العاطفية التى تربط عشاق الجاهلية من المثقفين العرب ، الناطقين عن الهوية والأصالة ، بهذا التراث الشيطانى . العقلانية التى يتقدمون بها لا تقبل بالطبع المقولات الغيبية كالجن والشيطان والملائكة . لكن ما وراء ذلك ؟ أية وثنية تقبع وراء العقلانية الإلحادية وتنتظر فرصة للظهور ؟ .

(12) يس : 60 : 62 .

الركيزة الثالثة للجاهلية هي العنف الجاهلى . وأى إمبراطورية كانت أشد وطأة وأكثر وحشية من الإمبراطورية الرومانية ؟ لا جرم أن تكون الحضارة الأوروبية المعاصرة لا تؤمن إلا بالقوة ، ولا تبنى إلا على القوة ، ولا تتعامل إلا مع الأقوياء ، ولا تحترم إلا القوة ، ولا تخاف إلا من القوة ، ولا تقيس إلا بمقاييس القوة . القوة هي المظهر السياسى للجاهلية . إذا كانت القومية هي الأساس والمبنى ، وكانت الجهالة الوثنية بالله العلى القدير هي اللب والمعنى ، فإن السيطرة بالعنف ، والاستكبار الفرعونى فى الأرض هما الوظيفة الحيوية ، والرسالة الحضارية .

إذا كانت القومية هي جذور هذه الشجرة الجاهلية وجذعها ، وكانت الوثنية الجمالية اليونانية فروعها ونضارتها ، فإن ثمرة تلك الشجرة الملعونة هي العنف والإفساد فى الأرض .

التركيبة الجاهلية فى المجتمع الذى يتخذه بعض ذرارى المسلمين نموذجاً هي كما رأينا :

(1) الأصالة القومية ، وفى ركابها الزهو بالعرق واللغة والتاريخ والتراث .

(2) العنف الجاهلى ويتجلى فى الحروب القومية ، والحروب الاستعمارية ، والحروب الطبقية ، والحروب بوسائط الدول المستضعفة ، وصناعة الأسلحة المخربة ، والقنابل النووية وعسكرة الفضاء .

فإلى أى مستقبل توجهنا الدعوة القومية ؟ وإلى أية وثنية ستنتهى العلمانية بالمتعبدین لها ؟ ثم أين القوة التى بناها القوميون والعلمانيون منذ هذه الستين سنة التى حكموا فيها بلاد العرب المسلمين ؟ أين القوة التى صنعها مصطفى كمال وأتباعه ومذهبه القومى العلمانى منذ أن اغتصب الحكم واغتصبه أتباعه فى بلاد الترك المسلمين ؟

إن هو إلا تقليد فاشل ، تقليد الفاشلين ، تقليد الضعفاء للأقوياء . وإنه لا مناص من مواجهة العالم الجاهلى بالسلاح الوحيد الذى يرهبه ، ويكرهه ، ويحقد عليه حقداً مزمناً ، ألا وهو الإسلام .

شبح الحروب الصليبية

هذا الفصل فى موضوع العلمانية تطاول وتشعب ، فإذا بنا فى الجن والشيطان والوسوسة. ما علاقة هذا بعنوان الفصل ؟ وما موقع الفصل برمته من استراتيجية الكتاب ؟ كنا وضعنا فى كتاب « مقدمات فى المنهاج » صيغة المنهاج النبوى وحركته وجدليته ، فإذا بنا هنا فيما يتراءى نصف. من جانب التحزب كله تعالى وللإسلام، واقع الآخرين وتاريخهم فهل رُغنا هنا عن الموضوع الذى أسسناه هناك ؟

إن معرفة ما يعترض طريق السالك إلى الله عز وجل ، وما يهدد تنهيج قلبه وتنهيج عقله ، وما يعرقل سيره إلى الله تعالى داخله فى شرط هذا الكتاب ، حسب تعبير علمائنا. وإن معرفة ما يعترض طريق حزب الله عز وجل ، وما يهدد تنهيج إراداتهم وتنهيج حركتهم ، وما تصبدم به خطاهم وهم يواجهون الواقع ، داخله فى هذا الشرط .

وإننا إذ وضعنا اللسان العربى والتراث ، ونظرنا فى الأصالة والتحديث ، وطرحنا العلمانية للبحث سرنا سيرا متسلسلا حتى توسعت دائرة أبصارنا فى الزمان والمكان ، فإذا بنا وجهها لوجه مع الواقع الكامل ، مع الجاهلية الرابضة بكل أفق أمام حركة الإسلام .

من يحصر أفقه فى التناقض العينى المحس المباشر الوقتى بين إسلام متحرك وحضارة مادية ماثلة تعترض طريق الحركة وتعاكسها وتناصبها العداء وتقاتلها دون أن يستفسر التاريخ عن روح تلك الحضارة ، وعن كونها مظهرا وقتيا لنفس الجاهلية التى بعث الله لقتالها الأنبياء ، فقد تقصر نظرتة ، وقد تغيب عنه الخصائص المعنوية والمادية للإسلام إذا لم تتضح أمامه الخصائص المعنوية والمادية للجاهلية . خوفا من هذا القصور نربط الفكر العلمانى الذى لا مناص من التعامل معه ، لأنه يكون شطرا من واقعنا ، بأصوله الجاهلية . فإذا عرفنا أصله وفصله وأين نشأ وم يتغذى ، أدركنا أن المعركة معركة واحدة ، هى المعركة بين الجاهلية والإسلام ، ولم نجزئ نظرتنا ، ولم نبعث جهودنا..

يذكر عنوان هذه الفقرة بصيغة مألوفة فيما يكتبه بعض الإسلاميين حين يتحدثون

بشاعرية وانفعال ورثاء عن مصير الإسلام المهدد ، وضعفه الحاضر ، والمؤامرات المحيطة به . كلمات « شبح » و « حروب » و « صليبية » من قاموس الخطابة الانفعالية ، لكننا نستعملها بقصد آخر . نستعملها لوصف الكيان المعنوي الذي يُشبه الشبح في تخفيه وإلحاحه وغشيانه ، ولوصف حروب فعلية تاريخية مضت وأخرى قائمة ، ولوصف واقع صليبي يتجلى هذه السنوات في كره الإسلام وقاتله ، وفي ظهور العداء السافر المنظم للمسلمين . في ظهور حزب سياسى فى فرنسا مثلاً شعاره وبرنامجه طرد العمال العرب والمسلمين من فرنسا.

ويمكن من هذه الزاوية أن نقيس الوجود السياسى الرسمى للصليبية فى فرنسا قياساً إحصائياً . فقد نال حزب لوبن الصليبي أحد عشر بالمائة من أصوات الناخبين لعضوية البرلمان الأوروبى . لا تسرع فتظن أن عنصرية سياسى اليوم لا دخل لها بالصليبية .

نصف واقعا معاديا لحركة الإسلام ، لكن لا الرثاء للذات رائدنا ، ولا وجود مؤامرات فعلية يغلق علينا سدول العجز الناشئ عن الجهل والكسل ، ولا قوة العدو ومكره يلجأنا إلى الهروب من ميدان المواجهة تحت حماية الجبرية الموروثة لنمسح فى القضاء والقدر نتائج تصورنا الفكرى والعملى المخطئين . نرجو . نرجو أن يعطينا الله جلّت عظمتة ذلك الوضوح فى الرؤية وذلك المضاء فى العزيمة ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به . ونرجو منه عز شأنه التوفيق والنصر .

عرضنا كيف انمسخ المجتمع الأوروبى من طلاء النصرانية ، وكيف عاد إلى وثنية أصوله اليونانية الرومانية . لم يبق إلا شواذ من الناس يتدينون بذلك الدين ، وإلا الكنيسة البابوية ونسيباتها البروتستانتية والأرثوذكسية المنتشرة فى العالم . ولهذه الكنيسة مخططاتها وأجهزتها ووسائلها . لا تزال هذه الكنيسة تحمل معها التوجه إلى العالم لتبلغه « رسالة الخلاص » . هناك تنصير منظم ، جيوش مجهزة بالأموال ووسائل النشر والاتصال . جامعات ، وإرساليات وخيريات ، وجرائد ومجلات ، وإذاعات وتلفازات . إنها نوع معاصر من نفس الاتجار بالدين الذى عهدناه . الشواذ من الأوربيين والأمريكيين - وهم فى أمريكا كثرة - الذين لا يزالون يترددون إلى الكنائس يصدقون العطاء للكنيسة التى تعبئ الرؤوس التنصيرية لاستنهاض نخوة النصرانى المكتظ بالمال والمتاع ليلقى بعض فضوله

للشعوب « البدائية » الجائعة المسكينة ، عساها تتعرف من خلال الإحسان على المخلص وطريق الخلاص . والمكتظ يتخفف ضميره بما يليقه .

جيش ، وأركان حرب ، وتعبئة وتحكمات موقعية ، واستراتيجية وبرامج ، وقيادة . إنها حرب التنصير الصليبية . صليبيتها بالنسبة لكل الشعوب ما عدا المسلمين تعنى أنها تنتشر تحت رمز الصليب ، وما يشير إليه الصليب من دين . أما بالنسبة للمسلمين فهي امتداد للحروب الصليبية التي دامت اصطداماتها العنيفة بيننا وبينهم قرونا .

هذه هي الواجهة الحركية لامتداد الحروب الصليبية . وإن لها معارك يومية قائمة . لنقل غزوات لأن من يقاوم الغازي لا وجود له حتى تكون المسألة معركة . فى كل يوم للتنصير . مكاسب . فى كل يوم ينصر مئات وآلاف من أطفال المسلمين الذين مات عائلهم . فى كل يوم تكتسح الثقافة النصرانية مجالات واسعة ، وتحتوى ثيابا متكاثرا ، ما معى إحصائيات ، لكن من المؤكد أن أندونيسيا المسلمة هي الآن الميدان المفتوح للغزو التنصيري الصليبي . الجماعات الإسلامية هنالك تقاوم ما أمكنها . لكن مساندة الحكم العلماني غير المحدودة للنصارى لا تسمح أن يكون هنالك معركة حقيقية . هنالك ينادى حال النصارى : يالثرات الحروب الصليبية ! .

الواجهة الثقافية للغزو الصليبي المعاصر تتمثل فى الاستشراق ، كان الاستشراق ولا يزال سلاحا معرفيا يحارب به الاستعمار الأمة الإسلامية . كانت بحوثهم ترمى لاكتشاف تاريخنا الماضى ، واكتشاف خصائصنا الإثنولوجية وعاداتنا وحركات قبائلنا ، وروابط مجتمعنا ، وأفكار خاصتنا وعامتنا واتجاهات فكرنا ، لتصوغ من كل ذلك معلومات يبنى عليه الاستعمار سياساته ، وكان لهذه البحوث ولا يزال جانبها العاطفى المحض ، جانب الحق على الإسلام ، واحتقار الإسلام والمسلمين ، ذلك الإحتقار الموروث . وبهذا كانت ولا تزال الدراسات الاستشرافية تؤدي مهمتين اثنتين : ما فيها من معلومات موضوعية يتراكم فهي محصلة « علم الاستعمار » ، وما فيها من إيديولوجية تحارب الإسلام يسرى سموها ثقافية ليُكره للمسلمين دينهم فينسلخوا عنه . كان المستشرقون ولا يزالون يتبعون فى دراساتهم منهجيتين ، تتصاحبان أو تتناوبان ، ولا تتنافيان فى هذه العقول العبقرية . إحداهما منهجية الاستقراء العلمى الدقيق وفحص المعطيات تهيئاً لاستنتاج علمى . وهذه

تخصص لما يخدم « علم الاستعمار » . والأخرى هي منهجية النتائج المسبقة التي يذهبون أشق المذاهب وأكثرها تعسفا على التاريخ والواقع الحاضر ليثبتوها بشواهد مصنوعة محبوبة.

لا يعدل النشاط التنصيري العملى اليومى العسكرى الذى يصادر الضمائر ويقتطع الحياة إلا النشاط الاستشراقى الذى يصادر العقول ويقتطع الثقافة . وما هما إلا وجهان لنفس الحقد الصليبي الموروث ، سواء شعر المنصر والمستشرق شعورا آنيا ، وقصدا قصداً آنياً أم لا . العبرة بالروح السارية ، العبرة بالصورة المشوهة التي يرسمها المستشرق عن الإسلام والمسلمين ، وبالتشويه الذى يحدثه الآخر النشيط المتحرك في حياة المسلمين ومجتمع المسلمين .

تلقى فيالق التنصير الدعم المادى السخى والدعم المعنوى من مجتمعات الغرب ، لا تمثل مساهمة النصرانى الشاذ بتدينه إلا جزءاً بسيطاً من موارد التنصير . الكنيسة ثرية إلى حد التخمّة . مصارف وشركات ، ومعامل ، وعقارات ، ومدخرات ، ثم هنالك التشريع القومى الذى يفتح باب التبرع ويشجعه فى الولايات المتحدة الأمريكية . كل مال تبرع به الأفراد أو الشركات للأعمال الخيرية يخصم من الضرائب . وأول من يستفيد من هذا الباب المفتوح التنصير .

وتلقى فيالق الغزو الثقافى مثل الدعم المادى والمعنوى . إن المجتمعات الجاهلية تزداد شعوراً بأن التنصير والاستشراق طلائع لنشر حضارتها . وفى مطبخ العواطف الجاهلية يمتزج الشعور الإنسانى الشريف بضرورة العطف الإنسانى على الإنسان ، والدفاع عن حقوقه ، وإطعام الجائع ، بالشعور القومى ، بالشعور الجاهلى ، بنداآت المنصرين ، بتصويرات المستشرقين ، بتأليبات الأحزاب والمنظمات العنصرية ، بالخزون النفسى الصليبي ، فتعطى الطبخة طعاماً يقدمه المنصر والمستشرق والإعلامى ألواناً ونكهات ليعود فى حلق تلك المجتمعات المطوية على كره الإسلام يغذى فيها الشعور ، وليلتهمه المقلد البليد من بنى جلدتنا ويستلذه ويمثله ، فإذا به منصر مستشرق ، دسيسة للعدو بين ظهرانينا ، ظاهره الطلاب الإنسانى التقدمى ، وباطنه من قبله العذاب . وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حقيقة الحروب الصليبية اليوم

الحروب الصليبية التى تحمل هذا الاسم فى التاريخ دامت ، مع انقطاعات ، مدة مائة وخمس وسبعين سنة من سنة 1095 إلى سنة 1270 ميلادية ، لكن الاصطدام بين الإسلام والنصرانية ابتداء مبكرا واستمر إلى مطالع هذا القرن . ثم استمر إلى يومنا هذا صراع بين المسلمين والدول الاستعمارية بعد أن لم تبق للأمة دولة . يكفى أن نذكر بالقتال البطولى والمقاومة الفذة التى واجه بها المسلمون فى الجزائر واحدة من أقوى الدول القومية النصرانية . وقد تجدد من يجسر على تزوير التاريخ مع قرب عهده فينسب المقاومة الجزائرية لواقع قومى أو « تقدمى » ثورى . وما صمد الشعب المسلم ثمان سنوات إلا بالنداء الإسلامى الذى سمعه ولباه الفلاح فى أقاصى جباله وصحرائه ، والمستضعف الذى قاتل « الكاورى » لكفره قبل قتاله لكونه مستعمرا . هكذا كانت الدوافع الحقيقية ، ولمن شاء أن يُلْبَس التاريخ ثياب الزور فله الحرية فى أن يبرهن على سوء نيته وغبائه . سرق العصريون تلك الثورة المسلمة ، فهم ينسبون لها غير فراشها ، والعهر السياسى ألوان . ويجدون فى الجو الثقافى المغرب قبولاً لتفسيرهم ، لأنه أكثر ملاءمة لروح العصر أن نتحدث عن ثورة شعبية جماهيرية ، فعندئذ تكون مفخرة ويكون النصر على مستوى تقدمى اشتراكى . أما أن نذيع أنها حرب بين المسلمين وأعدائهم فى الدين من حيث كونهم مسلمين ومن كون أعدائهم كفارا معتدين ، فهذا تخلف وكسف لصورة الحادثة التاريخية العظيمة بكل مقياس .

كنت أستمع أمس إلى ريجيس دبرى المفكر الماركسى الثورى الفرنسى الشهير رفيق شى كفارا فى حروب العصابات بكلولومبيا فى أمريكا الجنوبية يجيبهم عن أسئلة حول كتاب له حديد بعنوان « الإمبراطورية ضد أوروبا » . وأوقفنى فى كلامه لما سأله عن الإسلام الصاعد وما يمثله من خطر على الحضارة الغربية ما مؤداه : « ماتت الماركسية ، أو ما يسمى ماركسية ، تاريخيا . وليس هنالك فكرة أو عقيدة تدفع أصحابها ليركبوا شاحنة من المتفجرات ويقتحموا بها العدو إلا الإسلام » . هذا أدرك معنى استعداد المسلم للموت فى سبيل الله ، معناه التاريخى الحاسم . علمه ذلك وعلمه عقلاء العالم ، ما عدا المزورين

من بنى جلدتنا . جهاد المسلمين الفريد في جنوب لبنان بعد أن لقنهم مبادئ هذا العلم
مقاومة الشعب المسلم الأعزل في الجزائر أعطى قوة في أوروبا .

هذا مضي . والحرب الإسلامية في أفغانستان مستمرة بين الإيمان الأعزل والدبابة ،
بين أعنف جهاز عسكري عرفه التاريخ البشري وأقله إنسانية وأشدّه وحشية وبين الشعب
المسلم المسلح بإسلامه الشعبي التقليدي . فماذا يكون لو تجددت الأمة وتجدد إيمانها ؟
خوفا من هذا هب القوميون البعثيون في العراق ليقتلوا في مهدها ثورة إيران الإسلامية
بمشاركة من طرف دول الاستكبار العالمي قاطبة .

كل هذا العنف المبرمج والعفوى يدخل بشرعية معقولة تحت عنوان « الحروب
الصليبية » حتى ما كان من غزو السوفييت لأفغانستان . ما فعل الحمر الملحدون إلا تكملة
حروب صليبية قادها الحكم القيصري من قبل ضد بخارى وطشقند ، ضد شعوب
التركستان والقوقاز والطجكستان . نسأل الله جلّت قدرته أن يعيد للإسلام تلك الديار ،
وأن ينصر إخواننا في أفغانستان وفي كل مكان . لا نملك غير ذلك . وقد سألتني يوما قاضي
التحقيق : « لماذا نشرتم في صحيفتكم صورة مجاهد أفغانى بينديته ؟ ولماذا تكثرون من
ذكر « الجهاد » ؟ » .

إن استيقاظ المسلمين وقدرتهم على المقاومة ، واستعدادهم للموت في سبيل الله ،
زاد من فزع أعداء الإسلام ، وأرعب نفوسا وعقولا نشأت في الجو الثقافي الذي تحدثنا عنه
آنفا . منذ نحو شهر (أكتب اليوم السبت 6 شعبان 1406) اقتحمت فتاة مسلمة دون
العشرين بشاحنة المتفجرات سربا من العربات المصفحة اليهودية في جنوب لبنان . هذا
الخبر وأمثاله صَعَقَ العالم الصليبي صعقا . إنها تعبئة جهادية ما سمع العالم بمثلها . وما سمعنا
أنه كانت امرأة في صفوف الكامكاز اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية .

أستأذن في فتح قوسين سريعين هنا . لعل أحد المؤمنين يسأل ، وسؤاله في موضعه ،
عن حكم الله في أن يندفع مسلم أو مسلمة في صفوف العدو وهو موقن أنه ميت ؟ بعبارة
أخرى : ما هو حكم الله في هذا النوع الجديد من خرق صفوف العدو ؟

روى أبو داود وابن أبي حاتم في التفسير والحاكم وصححه ، وصححه الذهبي أيضا

عن أسلم بن عمران أنه غزا من المدينة تحت إمرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مدينة القسطنطينية ، وفي الجيش صاحب رسول الله ﷺ ومضيفه في بيته يوم هاجر أبو أيوب الأنصاري . قال أسلم : « والروم ملصقوا ظهورهم بالمدينة » . يعنى أنهم كانوا على أشد تعبئة لحماية أسوارهم . قال : « فحمل رجل منا على العدو ، فقال الناس : مه ! مه ! لا إله إلا الله يلقى بيديه إلى التهلكة ! » .

كان أبو أيوب أفقه القوم فقال : « إنما تؤولون هذه الآية هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة أو يُبلى من نفسه ! » يعنى رضى الله عنه أنهم فهموا الآية على غير وجهها إذ ظنوا أن التهلكة هي التماس الشهادة وإظهار أقصى الحرص والجهد في ذلك . قال : « إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما نصر الله نبيه قلنا بيننا خفيا [خفية] من رسول الله ﷺ : « هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ! » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (13) . قال : « فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد » قال أسلم : « فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية » .

★ ★ ★

كونوا مع الصادقين

لا إله إلا الله ! التهلكة أن تشتغل عن الموت في سبيل الله بمالك تصلحه ، لا أن تقتحم المخاطر وتموت لتحيا الأمة .

ولعل الحادثة التي أشار إليها الصحابي الجليل وقعت في غزوة العسرة ، في العام التاسع من الهجرة . وهي الغزوة التي نزلت بمناسبة سورة التوبة التي تمثل دستورا كاملا للجهاد ، وبياننا شاملا لنظامه ، ودرسا وافيا لدوافعه وموانعه ، وإعلاننا خالدا لنشر لوائه ، ومنشورا عسكريا في تفصيل مهماته . وفي سورة البقرة هذا التوبيخ للذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة فيقعّدون عن الجهاد ولا يحبون الاستشهاد . وأهم مشكلة تدور حولها سورة التوبة الكريمة مشكلة التخلف عن الجهاد . بمناسبة هذه الغزوة التنظيمية وقع الفرز بين المنافقين الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ الذين رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ حسب التعبير القرآني . ومعناه أنهم لم ينهضوا مع رسول الله ﷺ في غزوته الشاقة تلك ، ولم يواسوه ، ولم يفدوه بأنفسهم . وكان من بين المتخلفين المؤمنين كعب بن مالك وصاحبه ، وقد كانت نازلة الثلاثة درسا لكل مسلم أبد الدهر ما دام القرآن تتلوه القلوب المؤمنة.

غزوة العسرة هذه وفقه أبي أيوب رضی الله عنه وموقفه مع جند الله أمام أسوار القسطنطينية تقفل الدائرة وتضع أمامنا عنوانا على بدء نهاية تاريخ الحروب الصليبية الممتد في عصرنا ، عنوانا على صورة الفدائي المسلم .

كان الفداء والرغبة في الاستشهاد الروح التي حملت أمة الإسلام بقيادة رسول الإسلام ﷺ وقدوته إلى الساحة التي كان متوقعا أن يكون فيها أول اصطدام بين الإسلام والنصرانية . هذا الاصطدام وقع بالفعل في السنة العاشرة من الهجرة في مؤتة ولم يحضر رسول الله ﷺ . لكن غزوة العسرة هذه التي جاءت بعد سنوات جذب وجاءت في عز الصيف ، صيف الجزيرة ، وجاءت وقت طيب التمر ، وقصدت مسافة طويلة عبر الرمال الحارة القاحلة إلى مشارف الشام . كانت المحك العملي الذي عليه عُرِيت قابلية التعبئة بين

المؤمنين وعيرت قدرتهم على الإنجاز الشاق بالوسائل الشحيحة . ابتلى يومها بذل المؤمنين وسخاؤهم بالمال ، وابتلى صبرهم ، وابتلى حبهم لله ورسوله بالمقابلة مع حب الأهل والمال والراحة ، وابتلى وفاؤهم بالبيعة ، وابتلى صدق إيمانهم ، فتمايز المنافقون والمؤمنون ، تمايز المتخلفون والمجاهدون ، تمايز حزب الشيطان وحزب الله .

كانت هذه التعبئة التامة مقدمة بين يدي الصّدام الطويل بين الجاهلية العالمية والإسلام ، تلت الجهاد المحلى الذى قاده رسول الله ﷺ ضد الجاهلية العربية حتى دانت العرب للإسلام

ومن السنة التاسعة للهجرة بدأت الحروب الصليبية . كانت واقعة مؤتة أول « تجربة » ، وكانت قاسية بعد استعراض العسرة ، وكأن الأقدار الإلهية شاءت أن لا يرحل المربي القائد حتى يتأكد من صلاحية صنع يديه الكريمتين . كانت العسرة مراجعة عامة ، تلتها المناورة « الحية » فى مؤتة ، و كان النقد الإلهى يتابع العملية ، ويشير إلى الخلل ، وينبه إلى الثغرات فى الصفوف ، أراد الله عز وجل أن لا يرحل أبو الأمة ومنشئها ورمز وجودها حتى يمر جند الله من عملية العيار . وكانت القيمة الممتحن فيها هى القابلية للفداء وطلب الاستشهاد .

ذكر الله عز وجل فى كتابه العزيز الثلاثة الأنصار الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة العسرة وكيف ضاقت بهم الأرض بما رحبت لما قاطعهم المسلمون وأحسوا بأنهم جرثومة مرفوضة لرخاوتها فى مجتمع معبأ ، وذكر سبحانه توبتهم إلى الله ومراجعتهم لخصال الإيمان ونية الجهاد ، ثم توبة الله تعالى عليهم . وقال سبحانه بعد ذلك ليعلمنا كيف ينبغى أن يتخفف المجتمع الإسلامى من عناصر النفاق : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ﴾ (14) فالكينونة مع الصادقين ، الكينونة مع الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، التحزب بصدق وفداية مع حزب الله ، هى اقتحام العقبة ، هى الامتحان الدائم على صدق الجندية لله تعالى ، هى تسويق التربية وثمره الإيمان . كيان متماسك ، حى من داخله بعلاقات الرحمة ، قوى على صد

(14) التوبة : 119 ، 120 .

العدوان الخارجى بعدة الصبر .

وتد الله تعالى بالذين يرغبون بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ . هذا هو رمز الإسلام ، حى مائل مقدم على معركة . الإسلام مشخص فى رجل ، الأمة مدلول عليها بعزمه وقيادته وموقفه فى مقدمة الصف . فأولئك الذين لا تهب غيرتهم على الرمز ، ولا يحدثون أنفسهم بفدائه بالمال والنفس ، لن يستطيعوا يوما ، ولن يستطيع من هم على شاكلتهم ، أن يهبوا لفداء المرموز إليه الخالد ، وهو الحقيقة التاريخية لاستمرار الإسلام وانتصاره.

إن جند الله الذين برزوا من عرينهم كالأسود كانوا حملة رسالة هى أعز عليهم من أموالهم وأنفسهم . وكانوا نتاج تربية وتمحيص واختبار على محك الأحداث العسيرة . كان الأدب الاجتماعى عند العرب يقتضى أن يفدى الكبير والعزير بالآباء والأمهات ، فيقال له عند الخطاب : « بأبى أنت وأمى ! » وهكذا كان الصحابة رضى الله عنهم يخاطبون رسول الله ﷺ . بيد أن الصيغة الأدبية لا تلبث ، بعد الالتحام العضوى بالجماعة الصادقة ، وبعد تغلغل حب الله ورسوله فى القلوب ، أن تصبح تعبيراً عن نية ، عن إرادة ، عن تصميم . وتجيء الأحداث القاسية لتفرز أهل النفاق والارتفاق والكلام المعسول من الصادقين . ولمدى عشر سنوات اختبرت صفة الصدق فى الصف المجاهد . فى غزوة أحد كان سيدنا أبو طلحة رضى الله عنه يترس بجسمه عن رسول الله ﷺ ، يعرض ظهره لسهام العدو مخافة أن تصيب الرمز المحبوب المفدى . ولئن كان الصحابة قالوا عن ذلك اليوم مخلصين الحدث : « اليوم كله لأبى طلحة ! » فإن أبا طلحة لم يكن الوحيد فى فدائيته . هذا سعد بن الربيع يخاطب المسلمين وهو يلفظ أنفاسه الزكية فى المعركة : « لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ! » .

وتدرجت التربية بجند الله من الولاء لرسول الله ﷺ إلى الولاء لله عز وجل . حتى إذا فجعتهم وفاة الرجل العظيم ، النبى الكريم ، وأخبرهم أبو بكر الصديق أن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، كان ذلك إيذاناً أن الإيمان جاء ليرتفع المؤمنون درجة أخرى فى الصدق ، فتكون حياتهم وقفا دائماً لله عز وجل ، مجردا عن كل مجاملة أو تعلقة أو شبهة أو تعلق أو تملق تتستر وراء الولاء

للأشخاص.

نذكر هنا بروح الجهاد عند جند الله بعد أن تعرضنا لشبح الصليبية لنؤكد على أن الذى يتصادم فى الميدان الدائم قضيتان تتجاوزان الأجيال والمكان والزمان . نستبشر لظهور الفدائية الإسلامية على الساحة اليوم بعد أن طال انحنأؤنا الخانع أمام ضربات المعتدين . وإنه إن شاء الله تعالى لميلاد جديد للمعانى التى انتسج منها كياننا المعنوى ، تشخص جديد للذات الإيمانية الجهادية . تباشير ميلاد وتشخص على كل حال ، لأن الشباب الذى يرمى على الدبابات فى أفغانستان ولبنان لم يتزود بتربية كالتربية التى أنشأت سعداً وأبا طلحة ولا قريبا منها ، كل زاده الميراث الحى الذى بقى كامننا هذه القرون الخاملة كما يكمن الجمر تحت الرماد . فهو الآن ينبعث بدعوة الإسلام . والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

تاريخ الحروب الصليبية

كان الاصطدام على عهد عمر الفاروق ، رضى الله عنه ، بين المسلمين والنصارى البيزنطيين صداما عدائيا عنيفا . لكن واقعة اليرموك وما تلاها وسبقها من وقائع لم تكن إلا مناوشات فى أطراف الإمبراطورية البيزنطية . ثم إن نصارى المشرق البيزنطى الأرثوذكس لا يمثلون إلا جناحا ضعيفا فى النصرانية . لم تشعر روما ومؤسساتها المركزية بخطر . لم تمس النصرانية فى صميمها .

فى سنة 711 للميلاد فتح المسلمون مع طارق بن زياد الأندلس . هنا بدأ الصدام الحقيقى ، هنا شعرت النصرانية الأوروبية بالتهديد . ولم يمض نصف قرن حتى هبت الإمارات الشمالية فى إسبانيا القشتالية ، من ورائها تأييد الإقطاعية النصرانية والكنيسة البابوية لاستعادة الأندلس . ودامت حروب « الركنكستا » أى استعادة ما ضاع ، ثمانية قرون حتى سقوط آخر معقل إسلامى فى غرناطة سنة 1492 .

من خلال حروب الأندلس تعرفت النصرانية على بأس المسلمين وتعلمت كرههم . كما تعلمت من خلال معاشتهم المباشرة وبالوسائط الحضارة الفذة ومبادئ العلوم .

فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت الكنيسة قد بلغت من القوة ما يكفى لأن تعبئ أوروبا عن بكرة أبيها . فحرضت على « الحرب المقدسة » لاستعادة القدس و « قبر » المسيح ، فى زعمهم الفاسد ، أمراء الإقطاع وعامة النصرانية . وهكذا لى نداء البابا أوربان الثانى رعاع العامة وأمراء الفيو دالية يتقدمون جيوشهم المجهزة .

واستمرت الحروب المسماة بالصليبية اصطلاحاً من سنة 1095 إلى سنة 1270 ، مع انقطاعات ، واحتل النصارى مدناً ومعاقل فى الشام وفلسطين ، وغزوا مصر وتونس . وكان نهاية هذه الحروب فشل النصرانية الكامل بعد أن احتلت بلاداً لم تكن يومئذ قابلة للاحتلال الدائم ، لم يعد أهلها ، بعد الحقبة الأولى ، صالحين للاحتلال .

نلاحظ أن المبادرة كانت فى يد المسلمين فى القرن الأول ، قرن موسى بن نصير وطارق بن زياد . كانت المبادرة فى يد المسلمين قبل ذلك فى عهد عمر بن الخطاب لما

احتل المسلمون القدس . وكانت « الركونكستا » ردة فعل . وكانت الحروب الصليبية ردة فعل .

فى عصرنا أصبحت المبادرة فى يد الاستعمار منذ دخول الإنجليز الهند والفرنسيين الجزائر . وقد انجلى الاستعمار « الجسدى » وبقيت حقيقته . وهى هى الحروب الصليبية مستمرة متجددة وإن اختلفت المظاهر ، وتخفت بواطن النيات . من اللقاء العدائى فى الأندلس تعلمت أوربا منذ طفولتها المبكرة علم أمة فى فتوتها ونضجها . من اللقاء على ساحات المشرق ، ومن الاستيطان فى القدس وعكا وأنطاكية ، تعلم فرسان أوربا مبادئ حضارة متقدمة . والوضع منعكس اليوم . فمن المحتم ومن العسير معا أن نسجل منذ الآن حصيلة ما يبقى عندنا وما يجب أن يكنس من مخلفات الاستعمار . المرحلة التاريخية التى نعيشها مرحلة تصفية . ولئن كانت ضرورة اقتباس علم أوربا وتكنولوجياها تتراقص فى ضمائر الأمم المغلوبة على أمرها فإنما هو ولوع الطفولة الحضارية بالوسائل الظاهرة القوية . وأسبق من اقتباس العلم والتكنولوجيا استعادة الذات ، الكينونة ، الوجود المتميز ، الروح . أكون قبل أن أفعل . فإن تصديت للفعل ووجودى مبتور فالهزيمة محققة .

فى سنة 1099 احتل الفرسان الفيوداليون القدس وتوجوا ملكا عليهم بودوان الثانى . عاشت هذه المملكة ثمانية وثمانين سنة ، حتى فتحها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي ، رحمه الله ورحم رجاله سنة 1187 . ولم يكن انتصار صلاح الدين حادثة مفاجئة ، بل كان نتيجة تهيؤ وإعداد واستعداد بدأه سلفه الملك الصالح نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله . لا نزكى على الله أحدا ، نحسبه كذلك وتشهد له أعماله الصالحة .

★ ★ ★

التفتت التاريخي

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (15) في هذه الآية الكريمة يلقي الله عز وجل نبيه أول المؤمنين ، ويلقنا بتلقيه ، موقف الإنسان الحر الذي وعى الغاية وعرف المنهاج ووطد العزم على سلوكه بكل ما أوتي به . صلاته ونكسه توجه قلبي لله عز وجل تحالص . محياه وما في الحيا من مقومات مادية ومعنوية وعقلية وعلمية وعتادية هي من لوازم القوة ، كله لله رب العالمين . ومماته نُصب عينيه ، ولقاؤه ربه عز وجل مطلبه ، فهو مستعد ليتقدم إلى الموت بخطى الثبات الذي يعلم إلى أين هو رائج ، ومن أجل أية قضية هو رائج .

هذا الموقف المنهاجي لم يكن فلسفة ولا كلاما يلقي لتردده الألسن ، بل كان عملا واعيا مؤثرا في التاريخ ، شاملا كل نشاط المجتمع ، موجهها له . كانت هناك جماعة حية حياة الإيمان ، حاملة على أكتفها وعبء الرسالة ، وعبء تبليغها ، وعبء الجهاد من أجلها بما يقضية الجهاد من بذل بلا حدود حتى بذل المهجة في القتال .

موقف واحد جمع العلم والعمل ، جمع الرحمة والحكمة ، تضافرت فيه القلوب والعقول والجهود .

أمة واحدة ، جند معبأ ، أمامه طريق واضح لوضوح الغاية وهي لقاء الله عز وجل .

هذه صفات الذات الاجتماعية المجتدة ، ولم نتعرف بعد للعقبة المتعرضة وسط الطريق ، لا استهانة بالموانع الموضوعية ، لكن إبرازاً للدوافع الذاتية .

أول ما يتعرض له المحلل المادي ، خاصة إذا كان ماركسيا ، أن ينظر في المقومات المادية ، في المنشأ الطبقي ، في وسائل الإنتاج ، في « المرحلة التاريخية » . ونحن عندما قدمنا في الفقرة الماضية أن الصراع في الحروب الصليبية كان بين قضيتين عينا ضمينا أن العقبة كانت جانب جند الله متجاوزة . في تلك الاسطالة كان الناهج على الطريق ،

(15) سورة الأنعام ، الآية 162 .

كانت الأمة موحدة . فلما ضعف الناهج انتكست خطاه ، وتفتتت وحدته . أرجعنا هذا التفتت في عنوان هذه الفقرة للتاريخ لننظر العوامل الموضوعية كيف نخرت موقف المسلم الفرد ، وكيف بددت الجماعة ، وكيف أوهت القوة . والأمر لله لا يفعل سواه ، ولن تجد لسنته تحويلا .

كان انتصار صلاح الدين وجنده رحمهم الله نتيجة إعداد واستعداد . كان نتيجة ترميم للوحدة ، وتجديد لتلك الروح الفدائية الأولى التي كانت قد ضمرت في الخمسة القرون ونيف التي تفصل صلاح الدين عن البعثة المحمدية وعن تازيخ مولد الجماعة عام الهجرة . ثم ذهب صلاح الدين رحمه الله فتراجعت الأمور القهقري ، وانتصرت عوامل التفتت ، فما جمع الأمة بعد ذلك إلا القوة العسكرية المملوكية العثمانية الإسلامية التي لا يمل العلمانيون من بنى جلدتنا من ثلبها ونعتها بكل نقص ، مبرهنين على جهلهم بالتاريخ وتجاهلهم طبيعة المنحدر الذي هوت فيه الأمة .

بدأ التفتت التاريخي في حرب صفين سنة ست وثلاثين للهجرة على الضفة اليمنى للفرات . مكان وزمان تقاطعت فيهما دوافع الاقتحام الصاعد ودوافع الانتكاس بعد أن تصادمت الإرادات ، وتناضلت العقول ، وتلاطمت أمواج الفتنة ، وتصاف المؤمنون ، وتقاتلوا ، وأفنى بعضهم بعضا ليلة الهرير ، وتلك الليلة الليلية التي كان فيها بأس المسلمين بينهم أشد ما كان على طول أحداث السيف بين المسلمين وفداحتها . وبقي لتلك الليلة الشنيعة هذا الاسم الحيواني لأنها كانت بداية لتقلص حيواني في الحكم ، وبالتالي لتقلص عام . الهرير صوت الكلب حين يُبرز أسنانه مهددا بالعض ، ونظام الملكية الذي تضرب جذوره لتلك الليلة سماه رسول الله ﷺ ملكا عاضا أو عضوضا . فمن يهر ، ومن يعض ؟ ليل ، هرير ، عض ، رموز وحقائق .

هذا الشرخ والانشطار بعد التحكيم كان بداية لتفتت لا يزال بالأمة يقطعها إربا إربا على مر القرون حتى انحلت كل الروابط الإيمانية التي تجمع المسلمين ، وتسطح الإسلام في نسك فردى وصلاة صورية وحياة خانعة وممات على فراش الهوان . إننا والحمد لله وله المنة نعيش اليوم فجر بعث جديد وتركيب جديد متجدد لكيان الأمة . نرى فرحين بفضل الله كيف عادت الصلاة والنسك حياة ، وكيف أصبحت الحياة جهادا ، وكيف يؤدي

الجهاد إلى الممات لله رب العالمين لا شريك له كما أمرنا . فله الحمد والشكر . ومن حمده تعالى أن نطالع سنته في التاريخ لتتابع أسباب التفتت ، فنضعها موضعها في تسلسل قانون الله في الأمم والمجتمعات ، فنكون أقدر على فهم ما يحدث في الأمة من داخلها ، وما يتسلط عليها من خارجها ، وما يهددها في كل لحظة من انهيار داخلي لا قدر الله . والفهم مقدمة العمل لترشد إن شاء الله تعالى الحركة الإسلامية الناهضة .

كان التحكيم في صفين إيذانا ب بروز الخلاف المذهبي والسياسي . كان على عهد الصحابة رضي الله عنهم اختلاف في الرأي يؤول في العبادات والفتوى إلى تنوع وتسامح ، وفي السياسة إلى تشاور وتوافق ، وإلى عزمة الخليفة أمير المؤمنين . من التحكيم ظهر الخلاف ، وهو تعصب ، وتنافر لا توافق ، وتشدد لا تسامح ، وتكفير للخصم ، وقتال له ، واغتيال وتآمر ، وأحقاد ، وعداوات تتوالد على مر العصور وتتوارث . يهمننا بعد معرفة الأسباب العقائدية المذهبية التي صاحبت ظهور الملكية وانشطار الأمة أن نعرف ماذا تمثله اجتماعيا واقتصاديا الطبقة الحاكمة ، وإلى أي بيعة ينتمي الخوارج والشيعة . عندنا يسبق النزاع العقائدي في الخطوة بمراحل كثيرة أسباب التفتت الأخرى ، طبقة اقتصادية سياسية إلخ عكس ما ينتحيه الماديون في تحليلهم . وحدة الموقف في الصلاة والنسك تسبق وحدة الحيا والممات . العقيدة معقد الكيان . سماع النداء وإرادة تليته يرد الظروف الموضوعية والنزاعات البشرية إلى مرتبة موانع يجب أن تقتحم . نقول ونعني أن الإسلام لم يولد نتيجة توقان طبقي ، ولا كان لأسرة عربية مهما كانت عصبيتها أن تستولي على الحكم ، ولا للنظام الاستبدادي أن يستمر هذه القرون ، لولا النزاع العقائدي السابق « وركوب موجته » ، ولولا تغذية عوامل الانحدار وإضعاف عوامل الاقتحام بالرشوة والتزوير .

ها نحن عدنا إلى النقطة التي منها بدأنا تأملنا في العلمانية ودواعيها . وسبق أن قلنا إن الإسلام لم يعرف التحريف لأن الله عز وجل كمل لنا ديننا قبل رحيل الرسول ﷺ . لكن انحراف من انحراف يفرزه ويفرده انحراف مذهبي وسياسي ، انحراف مذهبي نشأ عنه انحراف سياسي ، انحراف سياسي برره انحراف مذهبي . أين وحدة الأمة ؟

إن بعض الباحثين العلمانيين يأبون إلا السباحة من أسفل التيار التاريخي لأعلاه عكس التسلسل الحدثي والمنطقي . فهم يريدون أن يلتقطوا كل حجة وكل شبهة لدعم دعوتهم

إلى فصل الدين عن الدولة ،أى إلى الإلحاد . فيتقهقرون بخطاهم إلى الوراء ، ظهرهم إلى الإسلام ومنبعثة ، ووجههم إلى معبود الماديين : المستقبل . إشكاليتهم تبرير تعددية الإسلام التاريخية ، وتوجيهها ، وتجميدها . ونحن إشكاليتنا أمام التجمد التعددى ، أمام الانشطار التاريخى ، أن ننظر إلى المبعث والمولد والنشأة والمراحل التاريخية ، ونتتبع خطوات الانحدار عن العقبة لنلتمس ونحن إن شاء الله فى صعود إلى الوحدة . انحدار كانت أسبابه النزاع المذهبى ومصائب الانحراف السياسى وجناية الملك العاض والاستبداد .

هم يتهموننا بالمثالية عندما نعطى الأسبقية للعامل الذاتى ، ويتهموننا بالرجعية عندما نضع التحليل الطبقي فى المكان الثانى ، ويتهموننا عندما ننظر المبعث والميلاد والنشأة بأننا ماضويون . هناك أسلوبان لتفكير المستقبل ومواجهته ، أظن أن العلمانيين اختاروا أقلهما ذكاء . التراث عندهم مخلفات تجوزت . ونحن ، تاريخ ميلاد الأمة ، ونشأتها وصعودها وانحدارها ، درس لنا دائم . فما لديهم من حل ، إنما هو تسكع فكرى فقط لأن الأحداث تجاوزتهم ، إلا أن يلفقوا .

نزاعات مذهبية فأنشطار ، فحروب فتنوية . وكان السيف على منحدر تاريخنا وصلت بين المسلمين أكثر بكثير مما كان وصلت على أعدائنا . مقتل الإمام على كرم الله وجهه ، قومات آل البيت منذ الإمام الحسين عليه السلام فالإمام زيد ، الحرب السياسية ثم القتال بين شيعة آل البيت ضد الأمويين . انتصار العباسيين . الحروب المذهبية بين سنة وشيعة ، بين سلفية ومعتزلة ، بين معتزلة وأشعرية . فتن الزنج والقرامطة . قيام الدولة العبيدية الإسماعيلية . ولاية السيف وتضاؤل « الخلافة » العباسية . سيادة العساكر البويهية الشيعية ، ثم غلبة السلجوقية السنة . التفتيت العقلى الفلسفى للعقيدة .

ما من مذهب ظهر ، ولا حرب سياسية ، ولا ثورة ، ولا قتال بين المسلمين إلا وزاد التمزق فداحة . وكان الاستبداد أهم عوامل التفتيت مهما اختلفت الراية التى رفعها . فلا نصل إلى سنة 541 التى تولى فيها نور الدين محمود بن زنكى إمارة حلب إلا والأمة أشتات ، والصليبيون قد أسسوا مملكة لهم فى القدس الشريف منذ 48 سنة ، فكيف فعل صلاح الدين والحالة هذه حتى استطاع طرد الغزاة ، يا من يحلمون بيطل لمستقبلنا على صورة صلاح الدين المثالية ؟

الملك الصالح

يقول العلمانيون الواقعيون الذين لا تستهويهم متالية الأبطال : اطرخوا الدين فهو العرقله . ولا ينتظر منهم أن يميزوا بين التحريف الذى حاد بالمسيحية الأولى فوضعها فى طريق التنصر الكنسى وبين الانحراف الذى حاد بالناس عن طريق الإسلام وبقي الإسلام هو الإسلام شاهداً على من انحرف ، متمثلاً فى الاستقامة الأولى ، متجسداً فى النموذج النبوى الخلاقى ، خالداً فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفى القلوب المؤمنة التى لا تزال بذورها صالحة توارثت الصلاح والصلاحية عبر قرون الانحراف والفتنة . هم يريدون أن نطرح الرضيع مع ماء الغسيل ، هذا مثل مترجم يفهمونه . ونحن نحسب أن نحفظ بالرضيع لأنه حى ، ولأنه قابل للنماء ، ونريد أن يتغذى بالغذاء الصحى الذى تغذى منه سلفه فى نشأته الأولى . أما الماء الملوث فليس طرحه باليسير . إن ما تراكم فى المجتمع المسلم من مخلفات التخويف الاستبدادى والنزاع المذهبى ، وصبغ السلوك بصبغة غير الصبغة الأولى صبغة الصادقين ، وطبعه بطابع الجمود والتعصب ومهادنة الاستبداد ، تراث لا يزال هو غذاء الإنسان الغثنائى . هذا التراث الموبوء هو ما يحب الترائيون المنافقون أن يعتمدوا عليه حين يتملقون « المخزون » النفسى لدى الجماهير المسلمة . وخوضهم فى ذلك الماء الكدر يلقي ظلال التشويش فى ضمائر طبقة من تلامذة الجامعات ونفوسهم يغترون بإفرازات هذه البذور النكدة الفاسدة .

منذ أن أصبح الحكم بين المسلمين ملكاً وهراً وعضواً انتحت الدعوة ورجالها ، فلم تعد الدولة هى راعية الدعوة كما كان الأمر من قبل . لم يعد السيف فى خدمة المصحف ، افترق السلطان والقرآن ، فحاول السلطان تفسير الدين لتبرير موقفه . سلطان قائم يرر مشروعية بقائه ، وحق مناهض خذله الرجال لقلة ما معهم من إيمان (الإمام الحسين عليه السلام مثلاً) . وباطل نائر يلبس مسموح الدين (المختار الثقفى مثلاً) . والفقهاء فى مواجهة مع أثل الفلسفة والإلحاد .

هذا التفتت فى الدولة والمذهب صاحبه تفتت فى الدعوة ، فتطوع أهل العلم والصلاح لتربية الأمة وتعليمها هنا وهناك ، الواعظ فى المسجد مع العامة ، والقاص

الشعبي بما معه من علم قليل . أمر تربية الأمة على الإيمان لم يعد القضية الأولى للدولة بعد انقراط عقد الجماعة الأولى وسيادة العصبية الأموية التي دعت نهوض مطالبات وعصبيات منافسة ومضادة . معنى الإيمان نفسه أصبح موضوع نقاش ومزايدة . فمن المهتدى ومن الضال ؟ كل حامل سيف سواء كان فى الحكم أو فى الثورة يزعم أنه البذرة الصالحة ، ووارث الإيمان ، وقلب الأمة النابض .

ويستمر الخلاف والتفتت إلى منتصف القرن السادس الهجرى حين يبرز الملك الصالح الذى أيد الله به الدين ، فرم القاعدة الاجتماعية السياسية التى بنى عليها صلاح الدين الأيوبي الصالح الثانى القوة التى استعادت القدس من أيدي الصليبيين .

إننا لا نصدق أن الفرد البطل يأتى فيقلب الموازين ويصنع وحده تاريخا جديدا . لكننا لا نصدق أيضا أن الحتمية التاريخية ، هذه الماهية المحجبة العجيبة ، تقوم مقام الرجال وتعوض مبادرة الأفراد الصالحين الأقوياء . إن القائد القوى الصادق كان فى كل تاريخ النواة التى حولها ابتليت الحركات ، العامل الاقتصادى السياسى يأتى من بعد . الاقتحام ذكر فى القرآن قبل العقبة .

حول القيادة الصادقة تتبلور فكرة ، وتنعقد إرادة ، وتشكون جماعة ويستدئ تاريخ جديد . كل هذا لا يتم فى الفضاء الذى لا يعوق الحركة ، بل يتم عبر العوائق النفسية والذهنية والاجتماعية بما فيها من أنانيات وعادات . ويتم بالاقناع وبالقوة ، ويتم بالصبر والثبات فى الزمن والخطى .

نعم سيدى ! لكن تعال نضع إصبعنا على مكن من مكامن الداء العضال فى تكويننا النفسى الفكرى بل فى تكوين كل مجتمع ضعيف منهزم . هذا المظهر المرضى هو انتظار القائد الملهم ، ذلك الانتظار الذى عاشت عليه الأمة وتعيش ، فيبرر ذلك الانتظار الخمول . ما لنا وللسعى والتعب ما دام المصير مرهونا بظهور القائد البطل ! إنها خرافية خطيرة معششة مشبطة .

فى مجتمع مثل هذا يظهر رجل قوى يلهب حماس الجماهير ، لكنه يتحرك بنفس البناء النفسى الذى ورثه من مجتمعه . لم يتغير هو فى جوهره ، لم يتجوهر على حقيقة

المثل الأعلى الكامن في « المخزون النفسي » للجماهير ترجمة صادقة . وقد تكون له إرادة ثورية ، و معه جماعة ثورية . مع مثل هذه القيادة تبتدئ حلقة من حلقات الصراع الحماسي ولا يبتدئ تاريخ . كان جمال عبد الناصر ذلك القائد الذي لوح بطموحات الاشتراكية لشعب أكلته الطبقية . لوح بطموحات التحرر من الاستعمار في بلاد محتلة ، لوح بوحدة وعالمية لشعوب مقهورة محصورة . لكنه لم يرب أمة ولا بدأ تاريخا . وإن الناصريين اليوم على الساحة يمثلون جناحاً مرموقاً من أجنحة القومية العلمانية ، وإن لهم الحق أن يسخروا من الذهنية الخرافية التي تجعل الأفواه مفتوحة إلى الهواء في انتظار صلاح الدين الجديد المنقذ . لكنهم إن سخروا من خرافية الشعب الذي يتذكر بطولة صلاحنا وصالحنا الذي حرر القدس بعد إعداد دام أربعين سنة فالأحق بالسخرية « بطل » انهزم في ستة أيام . وليذكروا بكاء الشعب في الشوارع عندما استقال البطل المهزوم . ذلك اليتيم الذي تجلى في شهيق ونواح الجماهير في الشوارع هو معيار الرجولة التي ارتفع إليها الشعب ، ومعيار التربية التي تلقاها الشعب في ميادين الخطب وعلى أمواج الأثير . اهتزاز وارتجاج .

كان إخواننا الشيعة أكثر المسلمين « انتظارا » للإمام المهدي . نحن نعتقد بظهوره عليه السلام في آخر الزمان . معنا لذلك أحاديث ثابتة ، وإن كان اختلافنا مع إخواننا الشيعة في تعيين الشخص موجودا . كان إذن « الانتظار » عائقاً نفسياً ثقیلاً عن كل تحرك . فمن أهم خدمات الإمام الخميني للقضية الإسلامية أن أزاح هذا العائق ، ووضع « الانتظار » في موضعه التاريخي ، أي في مكان ما على خط امتداد المستقبل الذي يعلمه الله وحده ، بحيث يكون « الانتظار » حافزاً للعمل لا معوقاً . يقول : الإمام الخميني : « واليوم في عهد الغيبة [أي غيبة الإمام المهدي] لا يوجد نص على شخص معين يدير شؤون الدولة . فما هو الرأي ؟ هل نترك أحكام الإسلام معطلة ؟ أم نرغب بأنفسنا عن الإسلام ؟ أم نقول : إن الإسلام جاء ليحكم الناس قرنين من الزمان فحسب ليهمهم بعد ذلك ؟ أو نقول : إن الإسلام قد أهمل تنظيم الدولة ؟ ونحن نعلم أن عدم وجود الحكومة يعني ضياع ثغور المسلمين وانتهاكها ! ويعني تخاذلنا عن حقنا وعن أرضنا ، وهل يسمح بذلك في ديننا ؟ أليست الحكومة ضرورة من ضروريات الحياة . » (16)

(16) كتاب « الحكومة الإسلامية » ، ص : 48 .

لطول ما سطا الحكم الفردى على المسلمين ، ولطول ما انتصب الجبابرة أمام عينيهِ ،
ترسخ فى الضمير الجماعى وفى الذهنية الجماعية أن الفرد هو منبع القوة . شهد لهذا
الهاجس سياط الجلاوزة ، ونطع قطع الرقاب ، وبطش الجبارين الصغار خدمة للاستبداد
وأعوانه .

القرون الطويلة من هذه التربية النسلية المنكوسة أنست مكان الخلافة ، وحرمة
الخلافة ، وهيبة النائب عن ذلك الرمز المفدى بالمُهْج والأرواح الرسول الكريم على الله عز
وجل ، الساكن حبه فى قلوب المؤمنين مع حب الله تعالى .

الملك الصالح نور الدين بن زنكى ما بلغ به صلاحه مرتبة النيابة والخلافة ، وإن كان
« الخليفة » العباسى الذى يحمل اللقب فى قصور بغداد دونه رجولة وصلاحا بما لا يقاس .
ومن هم هؤلاء السجناء الضعاف معاصروه من بنى العباس : المقتفى والمستنجد ومن
بعدهما المستضىء والناصر ؟

ولا كان الملك الصالح كالملوك الجبابرة أصحاب السطوة كالسلاجقة محتكرى
السلطة الحقيقية فى عصره .

كان واحداً من صالحى الأمة المحافظين على أمانة الإيمان الشاهدين بالقسط . لم يكن
ميدانه ميدان الدعاة والعلماء والمرشدين الذين يزخر بهم تاريخنا وإلى جهودهم الفردية
المبددة يرجع الفضل فى رعاية الحقل وتربية البذور الصالحة ، وأقربهم عهدا بذلك التاريخ
الإمام الغزالى رحمه الله والشيخ الإمام عبد القدر الجيلانى قدس الله سره . وكان الجو
العلمى الإيمانى الذى استنشقه نور الدين فى يفاعته وشبابه جواً غزالياً . كان ميدان
نور الدين ساحة الجهاد التى كان ينوى دخولها ، فهياً لها الأسباب ورتب أسباب القوة ،
فشاء الله أن تستفيد الأمة من تأسيسه على يد خلفه من بعده صلاح الدين الأيوبى رحمهم
الله جميعاً وألحقنا بهم مسلمين .

★ ★ ★

تحرير القدس

دام الوجود الصليبي في بلاد الإسلام ثلاثاً وثمانين سنة بعد تحرير القدس سنة 1187 ميلادية . كانت حصيلة الحروب الصليبية الثمانية الفشل الكامل والارتداد ، لكن غُصّة القدس كانت أمرّ ما تجرعه الصليبيون . لأن تحريرها من يد « الوثنيين » المسلمين كان الشعار الذي رفعوه منذ الانطلاقة الأولى . في هذا القرن العشرين من تاريخ النصارى ، في منتصف سنة 1948 ، أعلن اليهود دولتهم في فلسطين ، واستولوا على ما كان فاتهم من أجزاء مدينة القدس سنة 1967 .

كان المسلمون يوم احتل الفرسان الصليبيون القدس في مرحلة من مراحل التفتت التاريخي للأمة . وقد مضى على ذلك العهد اليوم قريباً من تسعة قرون استمر فيها التفتت . كانت الحقبة الثانية من العهد العباسي أواخر القرن الخامس الهجري انحسار سريع . لكن الشخصية الإسلامية كانت لم تنمسخ يومئذ ، ولا منع تعدد الإمارات وتجزئة دار الإسلام وصراعات المذاهب من بقاء وجود سياسى ثقافى دينى له السيادة داخل سياج وحدوى ولو صورى هو « الخلافة » . أما اليوم فقضية تحرير القدس تنطرح على هذه الأجيال من المسلمين والتجزئة التى أصابت بلاد المسلمين كانت ولا تزال قطيعة ، والصلة بالدين أصبحت مسألة فردية ، تدفع إلى هذه العلمانية كل الأنظمة الحاكمة ، باستثناء تلك التى تتملق الشعوب الإسلامية البادئة فى الاستيقاظ بقطع أيدي السراق الصغار زعماً أن ذاك هو تطبيق الشريعة .

تجزئة هذا العصر لدار الإسلام تقارن بتلك التجزئة الأولى ، إذ كانت تلك مذهبية أو استيلاء عسكرياً داخل الإسلام ، وهذه تحملها إيديولوجية قومية تسعى لطرد الدين من المجال السياسى . لم يكن يومئذ أحد يتصور أن يستند الحكم والقانون والحياة الاقتصادية والعامة على شىء غير الاسلام مهما كان المذهب ومهما كان فساد الحكام وبطشهم . لذلك كان التوحيد الذى بدأه نور الدين ومن بعده صلاح الدين رحمهما الله لا يجد عائقاً إلا مقاومة الأمير المستولى بالسيف . فكان السيف يقارع السيف ، وكانت « الدبلوماسية » النورية والصلاحية تمهد الطريق ، وتروّض الإمارات المحلية ، فإذا الأمة واحدة تسمع نداء

الجهاد فتتجه أنظارها للعدو المغير ، وتنسى لحظة الخلافات المذهبية . أما في عصرنا فمحاولة التوحيد الناصرية اعتمدت الدعوة القومية الصرفة مع السكوت التام عن الإسلام إلا في الخطاب الحماسية ، عند التعرض لأمجاد التراث القومي .

نجاح الترميم النوري الصلاحي تمثل في طرد الصليبيين من القدس بعد إعداد طويل ، وفشل التوحيد الناصري تمثل فيما يسميه القوميون بخجل واستخفاء بالنكسة . محك التاريخ ، ومقارنة التاريخ ، يبرز أن معالجة المجاهدين الأولين كانت معالجة ناجحة ، أعطت نتائج ، نتائج مؤقتة كما سنرى قريباً إن شاء الله . لكنها نتائج عملية : الأرض تحررت . أما معالجة المناضلين الاشتراكيين فدلّت نتائجها العسكرية والسياسية والاقتصادية على أنها معالجة فاشلة ، بل هي سلبية تزيد الموقف حرجاً وتردياً .

إننا إذ نستعرض الترميم الجهادي لا نقصد أن نتخذه نموذجاً ، ولا يمكن ، ولا يكفي . فإن التفتت الحالى ، وضخامة وسائل العدو الصليبي الذي اتخذ اليهود حلفاء يحاربنا بهم ، بل يحاربوننا به ، وقوة تماسك ذلك المجتمع المعادي ، لا يكفي معها توحيد ترميمي . كما كان ذلك ناجحاً في إبانة ، يوم كان العدو في درجة منخفضة حضارياً ، وكانت الوسائل العسكرية والاقتصادية متكافئة ، وكانت مخترعات العقول لا تجعل من أحد الفريقين لحماً على وضم ، لا يصنع سلاحاً ، ولا يطور فكرة ، ولا يحسن حتى استعمال ما ينتجه الآخر . هذا بالإضافة إلى تفاوت الحافز القتالي حتى الأمس القريب قبل أن يبرز المقاتل المسلم الفدائي فتتهاوى أسطورة البطل الصهيوني الذي لا يغلب .

لا يكفي لمواجهة التحديات المعاصرة والمستقبلية إلا إعادة بناء الأمة ابتداء من تربية الفرد المؤمن الذي نذر صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له . ابتداء من التربية يجب أن ننطلق ، ثم نعيد التفكير في كل جزئية في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، نعرضها على المنهاج النبوي . ونصانع الواقع ، ونصبر على طول الإعداد ، حتى تتوج جهودنا إن شاء الله بتوحيد الأمة . لا تعوز بحمد الله البذور الصالحة ، وفي رجال الدعوة تلتقي آمال الأمة بعد خيبة تلك الآمال في قوم غابرين .

في عهد ذلك الترميم كان رجال العلم والتقوى والدعوة يعمرّون المساجد بالحلقات العلمية ويفتحون بيوتهم للناس . وكانت المنافسة المذهبية تغيم ذلك الجو ، شيعة يقاومون

سنة ، حنابلة يتظاهرون ضد شافعية ، قضايا خلافية تتطور إلى مواجهة فى الشوارع .

وكان « الخليفة » العباسى الجالس على الأريكة الرمزية ليس له من الأمر إلا الخطبة يذكر فيها اسمه ، وإلا تعيين الخطباء والقضاة . وظيفة الدعوة كانت غائبة تماماً من أفق أولئك المساكين كما كانت غائبة عن يدهم السلطة الفعلية . كانت الدعوة منفصلة عمليا عن الدولة . لكن ذلك الانفصال لا يقارن بحال من الأحوال بالانفصال العلمانى كما نشأ فى أحضان أوربا من محاربة فلاسفة أوربا للكنيسة . بل على عكس ذلك كان « الخلفاء » والسلاطين والأمراء يتنافسون فى تقريب العلماء البارزين ، ويتنافسون فى بناء المدارس ووقف الأوقاف . كانوا يفعلون ذلك فينالون به الذكر الحسن عند الأمة . ولم يكن فى ذلك العهد ، لم يبق فى ذلك العهد ، أى تمييز بين المال العام والخاص . فما كان من واجب الدولة ، وهو دعم العلماء وبناء المدارس ، أصبح شأنًا خاصًا متروكا لأريحية مالكي البلاد والعباد .

كان المقتفى أول « خليفة » عباسى خرج نوعا ما من هيمنة السلطان المستولى السلجوقى منذ استبداد بنى بويه فى بغداد . قرب إليه واحدا من العلماء الشافعية البارزين هو ابن هبيرة واستوزره . فكان ابن هبيرة يحاول الاستناد إلى مكانته من المقتفى ليقوم بترميم الدعوة موازيا حركة نور الدين الذى كان يحاول ترميم كيان سياسى . كان ابن هبيرة يشجع نور الدين ، وكان له ركيزة عند المقتفى ثم عند المستنجد . واجتهد الوزير الصالح ، من وسط تلك القصور وفى وجه عوامل التفتت المذهبية ، أن يقرب بين المذاهب ويرأب الصدع بين أهل السنة ، فألف كتابه الشهير « الإفصاح » يفسر فيه صحيحى البخارى ومسلم وينشره لتقوية جانب السنة .

وعلى خطى ابن هبيرة فى دعم السنة سار نور الدين منذ توليه إمارة حلب بعد مقتل والده الأمير زنكى سنة 541 هجرية ، 1146 ميلادية . لم تمض سنتان على ولايته حتى أضاف دمشق إلى ولايته ، وأسس بها مدرسته الكبيرة « النورية » كان رحمه الله مثالا للتقوى حريصا على إقامة العدل . وكان بطلا فى الحروب الصليبية المتتالية .

حصلت بيده إمارتان : حلب ودمشق ، وطد فيهما حكمه ، وأقام فيهما مرافق مثل دار العدل ، ودور المارستانات ، وقوى الجيش ، وأصلح المال . وفى سنة 559 بعث

شيركوه عم صلاح الدين ، وكان من أعيان جنده إلى مصر لغزو الدولة العبيدية . تلا ذلك الغزو بعثتان أخريتان مكتتا شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي من التمكن في مصر سنة 564 .

كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن ازدادت عزلة الأسرة المتسلطة التي لم تستطع يوما أن تفرض مذهبها على الشعب . كان شاور وزير آخر « الخلفاء » العبيدين المستضيء هو رأس الدولة الحقيقي . فلما قتله شيركوه وتلقب بلقب الوزارة كانت الطريق مفتوحة لصلاح الدين ، إذ مات عمه بعد شهرين من ذلك ، فورث صلاح الدين الوزارة وقيادة الجيش النوري ، وما لبث أن أغلق القصور على أهلها وأعاد الخطبة للخليفة العباسي .

في سبع سنوات أنجز صلاح الدين ، وقد استقل بالأمر بعد وفاة نور الدين ، هذه الإنجازات الضخمة : وحد مصر والشام والحجاز وطرفا صالحا من العراق وجهاز جيشا مدربا ، وجمع أموالا طائلة أنفقها على الجهاد (ومات لا يملك ثمن تجهيز جنازته رحمه الله) ، وحاصر المعقل الصليبي معقلا بعد الآخر يكسر أجنحة المملكة النصرانية في القدس ، وأخيرا حرر الأرض المقدسة ، وحمل الصليبيين من أخبار كرمه ، وعفته عن الدماء ، وشهامته ، وشجاعة جنده ما اعترف به الصليبيون ولا يزالون رغم تعنتهم وحقدهم الدفين .

تحررت القدس في « خلافة » الناصر العباسي ، وكان الناصر حريصا على استنقاذ السلطة من يد السلاجقة : حاول أن يعيد « للخلافة » العباسية أبهتها وقاعدتها ، لكنه لم يهتد إلا لاختراع نظام « ملشيات » جديد هو نظام الفتوة الذي يتميز أعضاؤه بلبس سراويل خاصة وباللعب بالبندق .

كان صلاح الدين رحمه الله مرما موقفا بنى على أسس ابن هبيرة ونور الدين رحمهما الله : لم يكن سوى ذلك ، إذ مع وفاته تدهور ملك بنى أيوب ورثته ، وازدادت « الخلافة » العباسية تدهورا : فلم تمض إلا ثمانون سنة حتى دخل التتار بغداد وظهر التفتت على حقيقته : أين ذلك الصحابي الفدائي الذي كان الموت في سبيل الله أعز مطلب لديه ، أين ذلك الفارس الذي كان يخترق صفوف المستندين على أسوار القسطنطينية ؟

ابحث عن أسرار تربيته في أعماق الإيمان بالله ورسوله . أما المسلمون الذين غزاهم التتار وكسر بيضتهم فهم أشبه بغناء السيل الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ وشبه به المسلمين في مستقبل تفتتهم ، ووهن الإيمان في قلوبهم ، وكراهيتهم ، الموت وحبهم الحياة ، أى حياة.

يروى ابن الأثير كيف دخلت امرأة تتارية مقنعة على جماعة فأخذت تقتلهم واحداً بعد واحد لا يقاومون . وكيف أمسك جندي تتاري بمسلم فقال له : ابق هنا حتى آتى بسكين ، فذهب ورجع بسكينه ليجد الخروف ينتظر الذبح .

★ ★ ★

الإلحاد المفسف

أمر آخر جعل الترميم فى ذلك التاريخ ممكنا وسهلا نسبيا وكافيا للهدف المقصود ، هو ضالة الإلحاد بين المسلمين يومذاك . كانت واجهة الدعوة رغم نزاعاتها الداخلية سدا قويا فى وجه الإلحاد ، ومعظم هموم العلماء محاربة البدعة . ثم إن الممالك التى وجدها صلاح الدين كانت مجانية للبلاد الأكثر نزاعا مذهبيا وهى بلاد العراقين . فلم يعد هناك ، بعد سقوط السلطان الفاطمى فى مصر ، إلا المهمات العسكرية تكفلت بإزاحة حواجز غير ذات بال .

الإلحاد الفلسفى اليوم منغرز فى جسم الأمة ، ضالعة فيه طوائف من المثقفين المحترمين فى المجتمع بوجه أو بآخر . وهو يومئذ كان ظاهرة هامشية تماما مقموعة مرذولة .

يقول الإمام الغزالى فى كتاب « تهافت الفلاسفة » يصف ضالة الفلاسفة الملحدون فى عصره ، ولا نطن أنه وقع تطور فى الموضوع قرنا من الزمان بعده : « ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعى كتقليد اليهود والنصارى . إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظرى صادر عن التستر بأذيال الشبه الصارف عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلام مع السراب » .

كانت تلك الفلسفة إذن ستاراً سطوحيا تختفى وراءه ورائة وتربية نشأ عليها أولئك ، كانت جرثومة من البيئة المحلية نفسها . أما الإلحاد المفسف فى عصرنا فجرائمه جاءت لأرض بكر غير أرضها التى نشأت فيها ، فهى فيها أشد فتكا . ويصف الإمام الغزالى رحمه الله الإعجاب بأئمة الكفر وتقليدكم فنجد نفس ما نعهده عند أهل زماننا . قال : « وإنما مصدر كفرهم سماعهم بأسماء هائلة كسقراط وبقرات وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، وإطناط طوائف من متبعيهم وضلالهم فى وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية » هنا يضع الغزالى إصبعه على سبب مهم من أسباب الإلحاد يومئذ وفى كل طائفة متفلسفة . لم يكونوا يومئذ يميزون بين الفلسفة والعلوم ، فكانت صحة اختراعات تلك العقول الكبيرة فى الطبيعيات والرياضيات

دليلاً في نظر الأتباع المنبهرين بصحة مقالاتها في الإلهيات . واليوم في عصرنا لا يزال نفس البرهان معتمداً رغم ظهور التخصص العلمي في مجالات العلوم ، فكل ما جاء به العقل الغربي حقائق لا جدال فيها : التخمينات الفلسفية سواء في ذلك والكشف العلمي . كان ملاحظة ذلك الزمان ضحية للانخداع « القبل علمي » كما هم ضحيته زعماء الإستمولوجيا المعاصرين من بنى جلدتنا . قال الغزالي يقلل عدد أولئك ويحقر من شأنهم : « وإنه لم يذهب إلى إنكارهم [أى الأنبياء] إلا شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فيما بين النظر ، ولا يعدون إلا في جملة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغبياء والأغمار » .

لم يكن للعلمانية والإلحاد يومئذ سلطان على وجه الأرض كما هو الحال اليوم ، ولم يكن للملاحظة بين ظهرائي المسلمين تيار علمي ينتمون إليه ويكتسبون منه تأييداً كما يكسب التأيد اليوم تلامذة الفكر اللبرالي العلماني من نظرائهم في العالم القوي ، وكما يكسب تلامذة الإلحاد الماركسي من أصحابهم .

العلمانية والإلحاد اليوم مذهب له سوقه العالمية الرائجة . وله سنده السياسي الخارجي ، وله وجوده المنظم في بلاد المسلمين ، وله تغلغل خطير في كليات التعليم ومدارسه . تقليد الأسماء اللامعة ، وتبني الثقافة العلمانية المتولدة تاريخياً من قتال العقل السليم للخرافية النصرانية كانا ولا يزالان المدخل الذي سلكه المضللون المعاصرون حتى انضموا إلى « جملة الشياطين الأشرار » . لكنهم بعد الدخول تمكنوا في الأرض ، وضربوا بالجدور ، وكونوا الخلايا الحية النشيطة . فلا هم « شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة » كما كان أولئك ، ولا يفيد في إعادة توجيه آرائهم المعكوسة مجرد الاستدلال البرهاني على غرار ما ظن صاحب « التهافت » حين ألف كتابه : « ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً يدل على حسن رأيه ، ويشعر بفطنته وذكائه » .

★ ★ ★

الردة والزندقة

التجمل بالكفر تقليداً ، أو إظهار الكفر إقتناعاً يطلق عليه بلسان الشرع اسم « ردة » . أما حين يصبح الإلحاد فلسفة ودعوة مفتوحة ، ونشاطاً منظماً فتبلك الزندقة . ولكل من الردة والزندقة أحكام معروفة . وإننا لنأمل أن « يكف عن غلوائهم » هؤلاء وأولئك ويدخلوا إلى الحوار قبل أن تصبح الأحكام الشرعية آخر الدواء . فالدولة الإسلامية قائمة إن شاء الله في دار الإسلام . هذا ما أصبح يتوقعه الخاص والعام ، وإن استباق بعض العلمانيين إلى رفع شعارات الإسلام بين يدي الاحتمالات التاريخية التي يجيدون قراءتها في الأفق السياسى لدليل على أن الغباوة تتجزأ . ونربأ بأصحاب العقول العلمانية أن يختاروا أسلوب النفاق كما فعل جماعة « مجاهدى خلق » فى إيران . فكما أخفقوا هنالك فهم مخفقون أنى ظهروا إن شاء الله .

خليق بهم أن يبحثوا عن حوار يطلبون من خلاله معرفة الحق ، وقد يجدون التقصير من جانب جند الله قليلى الخبرة بالمذاهب الفلسفية والمناهج التاريخية ، فلا يمنعهم ذلك من التجرد لحظة لمراجعة ما معهم من زاد فلسفى ونقد موقفهم الذى سيجدون عامل « التجمل بالكفر » يشكل عمدة من عمدته . إنهم يحبون النقد الذاتى كما يزعمون ويلهجون به ، فيهنون عليهم نقد حاضرهم إن تجردوا من الحزبيات ليتابعوا التوالد التاريخى للزندقة المعاصرة .

كان الإلحاد المفلسف فى القرن الثامن عشر الميلادى بأوروبا ، فلاسفة فرنسا يقودون الحركة، إلحادا سياسيا فى جوهرة . كان « الفيلسوف » فولتر والموسوعى ديدرو وأصحابه يناضلون ضد الكنيسة التى تُسند الاستبداد الملكى وتؤيد مطالبته ودعواه فى « الحق الإلهى » فى الحكم . ناضلوا ضد الكنيسة وضد الدين ، وهم لا يعرفون ديناً غير دين الكنيسة ، دفاعاً عن الحرية ومدافعة للطغيان : يقول البارون دولباخ فى كتابه « النصرانية من غير ستار » ما نصه : « كل ما ذكرناه حتى الآن يثبت بأجلى صورة أن الدين

النصراني معاد للسياسة السليمة ولسعادة الأمم . والدين عنده إنما هو اختراع ابتكره الطغاة لتبرير طغيانهم وتركيزه يقول : « الدين هو فن إسكار الناس بالحماسة لمنعهم من الاهتمام بالمصائب التي ينزلها بهم أولئك الذين يحكمونهم » (17) .

عبارة ماركس « أفيون الشعوب » تلخص فكر القرن الذي قبله . يقول ميليه : « الجهل والخوف ، هذان هما محورا كل دين [..] . لقد كان هدف المشرعين الأوائل أن يسيطروا على الشعوب فكان أيسر سبلهم إلى ذلك أن يخيفوهم وأن يمنعوهم من إعمال العقل [..] . وكلما ازداد المرء إمعانا في دراسة النواميس والمبادئ الدينية يزداد قناعة بأن هدفها الوحيد مصلحة الطغاة والرهبان » (18) . هذا القرآن بين الحكام ورجال الدين ، بين كهنة الكنيسة وطغاة القياصرة هو ما سميناه في أول هذا الفصل « بالوصال الأنكد » الذي أدى إلى « الفصام النكد » بين الدولة والدين .

الماركسيون يعتبرون هذا الفصام هو الجواب الوحيد لذلك الوصال ، ويعتبرون هذا الإلحاد السياسي الفلسفي تقدمية فائقة . يقول من كان يدعى روجي كارودي قبل إسلامه ، يوم كان في عز ماركسيته قبل أكثر من عشرين سنة : « وقد لعب الإلحاد دورا سياسيا رفيع التقدمية في تخطيط العلاقات الإقطاعية ونظام الملكية المطلقة . وذلك بكشفه استغلال النظام القديم للدين استغلالا سيايا واجتماعيا . وفي هذا سر عظمة الإيديولوجية العتيدة . أما قصورها في نظر الخبير الماركسي فهو في أنها لم تر في الدين إلا اختراعا معتسفا دون أن تتساءل ما هي الحاجات الإنسانية التي جاء هذا الاختراع تلبية لها ، وما هي القيم الإنسانية التي أبدعت على هذه الصورة الدينية . » (19) .

كان كارودي يوم كتب كتابه ماركسيا نصرانيا معاً ، متمزقا بين غضبه للحق الذي يجعله يصفق لإسقاط الطغيان وبين تعطشه الروحي الذي كان يجد في النصرانية له منتجعا . هذا التهمم الفطري الذي يجرد الإنسان الجاد في الحياة من الاعتبار القشرية

(17) نقلا عن كتاب « ماركسية القرن العشرين » ، ص : 143 . كتبه رجاء كارودي قبل إسلامه ، دار الآداب ،

بيروت .

(18) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(19) المصدر السابق ، ص : 144 .

ليطلب الحق بحركة من أعماقة هو ما نأمل أن يستيقظ في نفوس من نحاورهم في هذا الكتاب من موقع شعورنا بأهمية ما يمثلونه من كسب ثمين لأمتهم إن صبروا على الطلب وصدقوا فيه كما صدق كارودى . نرجو .

إن نقد « الوصال الأنكد » بين علماء القصور والطغاة المستبدين في تاريخنا الماضى والحاضر من أكد واجبات كل مخلص لدينه ، فقيه فيه ، لا ننتقد ذلك القرآن الكئيب ابتغاء مرضاة فيلسوف تائه ، أو متحزب نريد استمالته ، لكننا نفعل إرضاء للحق ، وتحريرا لذهنية المسلمين من ثقل كان يعوق عن التفكير ، ولطاقاتهم من قيد كان يمنع من الفاعلية التاريخية لإرجاع الحق إلى نصابه ، فإن كنا نبهنا الفيلسوف أو المتحزب ، فتلك وظيفة ضمنية من وظائف الدعوة . والله المستعان .

★ ★ ★

الإلحاد العلمى

هم يقولون عكس ما نقول : فتحرير الإنسان عندهم لا يصبح إلا عبر تحريره من الدين ، والثقل الذى يعوق عن التفكير هو الدين ، والقيود الذى يمسك طاقات المجتمع ويمنعها من الانطلاق والإنتاج هو الدين ، فإزالة الدين من طريق الإنسانية وتنحيته والقضاء عليه ضرورة سياسية علمية .

ورث القرن التاسع عشر فى أوروبا الإلحاد من « فلاسفة » القرن الثامن عشر ، لكنهم نوعوا الحثيات التى من أجلها حاربوا الدين . فبينما كان الداعى إلى الإلحاد عند أمثال فولتير وديدرو سياسيا قبل كل اعتبار ، وكان عندئذ يسمى فيلسوفا كل مثقف يهتم بالسياسة والتحرر ، نجد فى القرن التالى فلاسفة يبنون الإلحاد على أسس فكرية بعد أن تقلص نفوذ الكنيسة واطمحل تأثير الإكليروس ، يعتبرون الدين تفسيراً للكون والإنسان سابقاً للعلم ، بدائياً . وكانوا ينظرون فى طقوس الكنيسة وجوهر عقيدتها لا فى وظيفتها السياسية . فيجدون فى تلك العقيدة والطقوس ما يعطى تهمتهم للدين عامة معقوليته . فمن خلال عقيدة التثليث المعقدة المتحدية لكل عقلانية ، ومن خلال الخمر التى تستحيل دماً للمخلص ، ومن خلال الخبز الذى يصبح بعد قراءة الطلاسم جسداً للمخلص ، يعممون حكمهم على كل دين .

وقالت الفلسفة فى القرن الفائت كلمتها فى الدين ، فرسخت ، وأصبحت مسلّمة عند ملاحدة هذا القرن وزنادقته من بنى جلدتنا ، لا مكان عندهم للتأنى وفرز الحق من الباطل ، لا مكان لعرض العقيدة الإسلامية ومقارنتها بعقائد الكهنوت النصرانى . إنهم سحبوا على الإسلام حكم سلفهم على النصرانية وعلى كل دين . ثم إنك إن جئتهم من ناحية العقيدة والجوهر فلن تجد استعداداً للحوار ، لأن الإسلام الرسمى يُوظف الإسلام فى تخدير الأمة ، والبرهان العملى السياسى الذى يتمكنون من التقاطه يومى ماثلاً أمام أعينهم يثبت وجود هذا التخدير ، وهذا يغنى عن كل نقاش فى المبادئ المجردة . يكفى يوم واحد من إساءة أمثال « المارشال - الإمام » النميرى للإسلام باسم الإسلام لتزويدهم بالأدلة الكافية لإسكاتك أنت المتبرئ من الدجاجة ، المكبل بما جنت وتجنّى أيدي بعض المعممين

قرناء النكاد وعاظ السلاطين .

سقط نظام النميرى السيئ الذكر منذ شهر عند هذه الكتابة . سقط نظامه والإخوان المسلمون الذين سايروه فترة فى السجون . أيكفى خلافهم له آخر الأمر ليثبت لكل متهم للدين بصفة عامة ومبدئية وسياسية وفلسفية أن اقترابهم منه إنما كان تهيؤاً لخنقه كما صرح هو بنفسه عندما أودعهم السجن ؟ كيف وأعداء الإسلام لا يتركون شاذة ولا فادة من حركاتنا وسكناتنا وإصاباتنا وأخطائنا إلا كيفوها ليعزروا هجمتهم على الدين ! ولا يعينهم فى شيء أى دين هو ، ولا أصله وجوهره .

صنّف أوغست كونت الفيلسوف الفرنسى الوضعى أوضاع المجتمع البشرى الثلاثة المتعاقبة كما يلى : الفترة اللاهوتية ثم الفترة الميتافيزيقية ثم الفترة الوضعية . فى الفترة الأولى كان البشر يسعون إلى تفسير الكون والإنسان بتقدير غاية للوجود تقديراً نشأ عنه الاعتقاد فى الآلهة اعتقاداً عفويّاً . ثم فى الفترة الثانية بحث البشر عن هذه الغاية بالتفكير الفلسفى . وفى المرحلة الثالثة تحرر الإنسان من اللاهوت العفوى ومن الميتافيزيقا الفلسفية وحكّم العقل العلمى الوضعى . فلا مكان للدين فى عالم العقلية العلمية التى لا تؤمن إلا بما ترى وتبلغه الحواس ، ولا تهتم إلا بالعلاقات بين الأشياء وتعريفها وتحديد وظائفها الثابتة بالتجربة.

★ ★ ★

الدين ... عاهة وعيب

فى مسيرة نقد الدين ، أى فى مسيرة العلمانية والإلحاد والزندقة ، بدأت المناوشات عاطفية غضبا على سلوك الكنيسة وقادتها ، ثم استفحل الغضب وتسييس ، فرفض القرن الثامن عشر ما سماه ماركس من بعد « أفيون الشعوب » ، ثم تعلم النقد فى القرن التاسع عشر فصنف الدين مع المخلفات البدائية التى تجاوزها البشر .

مع ماركس ظهر الإلحاد العصرى المتطور ، الإلحاد الثورى ، كان من قبله من الفلاسفة السياسيون والعلميون بالإضافة إلى « المتزنين بالكفر » تقليدا . كانوا يرفضون الدين بوصفه عائقا عن تحرر الإنسان أو بوصفه مرحلة متجاوزة . وتلك هى الطريقة السالكة إلى الوضعية المادية السائدة فى هذا العصر . أما ماركس فيتعمق فى فلسفة الدين ليكشف عن جذور الحاجة المرضية فى زعمه التى تدفع الإنسان للتدين . إنه لا يكتفى برفض الدين الذى ليس إلا ظاهرة ، بل يريد أن يؤكد حرية الإنسان . فى إبداع نفسه بنفسه ، وفى هذا يقترب من الإلحاد الوجودى ، وأن يؤكد إيجابية الإلحاد باعتباره خطوة نحو الاستقلال ونحو التخلّى عن العاهة النفسية التى تتركب عليها ظاهرة الدين .

يحتفظ ماركس « بمكتسبات » النقد السابق : فالدين خديعة اصطنعها المستبدون للسيطرة على الشعوب ، وهو وهم تولد عن الجهل وبدائية التفكير . ويضيف ماركس وشريكه إنجلز أن الدين انعكاس لشقاء الإنسان واحتجاج على هذا الشقاء .

والتحرير الإنسانى الشامل عند ماركس إنما يتم بالقضاء على الطبقة . ففى ذلك المجتمع اللاتبقى الذى تبشر به الماركسية ينحل التناقض بين « الوجود الفردى الحسى للإنسان وبين وجوده النوعى » ، بمعنى أن الإنسان فى ذلك المجتمع يتحرر من وجوده الواقعى المستلب ليصبح شخفاً واعياً بانتمائه للنوع البشرى متمتعا بكل ما حققته البشرية ، مشاركا فى الإبداع ، متطلعا إلى ما لا نهاية له من القدرة على الإبداع . وعندئذ يختفى الدين باختفاء الحاجة إليه . ويصبح غير ذى موضوع بعد اضمحلال « القاع الإنسانى » ، أى العاهة التى تدفع الإنسان فى المجتمعات الطبقة للتدين .

يقول ماركس إن الإنسان الذي يعيش في مجتمع يسوده الاقتصاد البضاعي يبقى معزولا مستلبا لا تتاح له الفرصة ليشارك في حياة النوع البشري ، لغياب الشفافية في العلاقات ، ولتعرض البضاعة والتقويم البضاعي كحاجز يمنع الأفراد من الاستغناء والتمتع بالمكتسبات التاريخية للإنسانية . فأمام هذا الوضع المرصى تنعكس في « قاع الإنسان » العاهة الاجتماعية على شكل تدين ذاتي هو في نفس الوقت تمرد على الأوضاع .

ولا يتردد ماركس وإنجلس والماركسيون في الاعتراف أن الدين في فترة ما ، وفي ظروف تاريخية ما ، يكون تقدما . لذلك لا تجد صعوبة لدى « المتزنيين بالكفر » من بنى جلدتنا ليعترفوا بطيب خاطر أن الإسلام كان في وقته وثبة جبارة ، ثورة تاريخية ، ومجدا تراثيا . كل ذلك ليزدادوا في أنفسهم تيقنا أن المنظومة الإيديولوجية التي يدينون به عقيدة راسخة كشفت قاع الأمر كله ، ومنبت العاهة ، ومولدها في وجود الداء الكلى داء الطبقيّة . على أن المتحزبين اليساريين العاديين لا يدخلون في نقاش الإنسان الفردي والذاتي والنوعي كما يفسر ذلك ماركس . يكتفون بإلحاد مبسط بسيط تجمله عبارة « أفيون الشعوب » .

إن الكنيسة الماركسية مضطربة العقيدة في شأن الإلحاد . كبراؤها لم يتبعوا ماركس في تحليله القاعى . فهذا إنجلس يرد بصفة غير مباشرة على مقالة ماركس التي تفيد بأن المسيحية الأولى لم تكن ثورة للعبيد لأنها ظلت دينا للعبيد . يقول إنجلس بعد أن هاجم « وجهة النظر ذات العقلانية السطحية » التي تعتبر أن « كل الخرافات في سخافتنا سواء » ما يلي : « المسيحية مرحلة جديدة حقا من مراحل التطور الديني ، مدعوة لأن تصبح أحد العناصر الأكثر ثورية في تاريخ الفكر البشري » (20) .

ويتناقض إنجلس مع شريكه في تحليل « القاع الإنساني » وميلاد الدين من التناقضات الطبقيّة والاقتصادية فيقول : « سيكون جمعجة فارغة أن نبحث عن أسباب اقتصادية لهذه التطورات الدينية الأولى » (21) . كلنا نعلم أن ما تطحنه رحي الفلسفات حول الدين إنما هو جمعجة فارغة ، سواء كانت فلسفات سياسية أو وضعية أو ثورية . ما تطحنه حول دين

(20) المصدر السابق ، ص : 157 .

(21) المصدر السابق ، ص : 162 .

النصرانية المحرف الخرافى ثم تعمم . لكن ليس من المتوقع أن تجد مثل هذا التقويم عند
إنجلس الخل والوفى و الشريك الند . ثغرة من الثغرات التى لا تحصى فى ذلك الصرح .

لا ولا من المتوقع أن تجد عند الشريك الثالث ، قل التلميذ النابغ ، لنين فكرة مناقضة
لفكرة الإلحاد القاعى الماركسى . ما كان يراه الأستاذ عاهة وعيبا وظاهرة تعفننية، يراه
التلميذ النابغ المنفذ للنظريات الحاملة عنصر حياة وزهرة يانعة من زهرات المعرفة البشرية !
كتب كارودى ما يلى : « إننا نقول ، كما فعل لينين ، إن النظرة الدينية ليست بلا سند من
المعرفة ذاتها ، وإن الدين - كما قال لينين فى « الدفاتر الفلسفية » : زهرة غير مثمرة ،
ولكنه زهرة نبتت على الشجرة الحية للمعرفة الإنسانية الحية » (22) .

★ ★ ★

(22) المصدر السابق ، ص : 165 .

النصارى العرب

ترددتُ عند كتابة هذا العنوان بين صيغة التعريف كما كتبت وبين صيغة : « نصارى العرب » : الصيغة الأولى تثبت لهؤلاء النصارى ذاتية وأصالة ، والثانية تأتي بهم تبعا إضافيا . من يعتبر فاعلية هذه القلة القليلة في جسم الأمة وحيويتها وأثرها البالغ لا يكتب الصيغة الإضافية ، وربما كان الأليق أن نتحدث عن « عرب النصارى » إشارة إلى مكان النصارى ، يقودون كثيرا من العرب بالزمام ، ثقافيا وحزبيا وإعلاميا .

يمثل النصارى العرب أقل من خمسة في المائة بالنسبة للعرب ، أكثر قليلا من خمسة في الألف للأمة الإسلامية . ورغم ضآلتهم العددية فإن لهم الأثر البالغ في تكوين العرب المعاصرين الفكري ، ومكان القيادة في التوجه القومى العربى بالأمس ، وفي التمزق الطائفى الذى نبعت غائلته في الحرب الأهلية اللبنانية ، وفي التآمر المارونى مع دولة اليهود .

يمتد تاريخ النصارى العرب في تاريخ الإسلام إلى نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﷺ ، فأنزلهم بمسجده ، وأكرم مثواهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وجادلهم بالتي هي أحسن لما أبوا الاستجابة ، ودعاهم إلى المباهلة آخر الأمر فأبوا . ثم تصالحوا مع رسول الله ﷺ على الجزية ، وعاشوا كما عاش كل أهل الذمة فى كنف الدولة الإسلامية ، بل فى كنف المجتمع الإسلامى ، قاسموه الحلو والمر .

لما شاخت الدولة العثمانية ، وآن لأوربا التى لفظت دين النصرانية دون أن تلفظ أحقاد الصليبية أو ان الكثرة ، تصدت أوربا « للرجل المريض » لتجهز عليه وتنتهى أربعة قرون كان أثناءها العثمانيون يمثلون فى عين أوربا النصرانية الهول الإسلامى والخطر المحقق منذ فتحهم القسطنطينية سنة 1453 ميلادية .

كانت المواجهة بين أوربا والمسلمين بقيادة الأتراك امتدادا مباشرا للمواجهة الدائمة ، ومن أبرز فترات الحروب الصليبية المسماة هكذا . تحولت هذه الحرب بالسلاح الحديدى إلى حرب شاملة للإجهاز على الإمبراطورية العسكرية العثمانية ، شوكة الإسلام لقرون طويلة ، فكان النصارى العرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى بعض فيالق الجيش

النصراني . وتقلب النصارى العرب فى « أدوار » على مسرح تاريخنا المعاصر . فكانوا السابقين إلى تثقيف العرب بالثقافة الغربية التى كانت ولا تزال تربطهم بها روابط القربى الحميمة ، وكانوا « موقظى » العرب ، و « خدام » اللغة العربية ، والمبشرين بالبرالية ، ورواد مدارس التنصير ، ومؤسسى الحركة القومية العربية . وقبل ذلك كانوا أنصار الثورة العربية على الأتراك ، وكانوا حملة الفكر الماركسى الأولين ، هم اليوم على رأس الدعوة المارونية الطائفية .

حول الأرض المقدسة ، حول فلسطين المحتلة كيانات عربية هزيلة ، قومية ووراثية عشائرية ، لكن اليهود لا يطمئنون ، وهم دولة طائفية ، إلا إن قامت حول فلسطين دويلات طائفية موازية متحالفة خادمة ممتدة كالسرطان فى جسم العرب والمسلمين .

كان خروج الصليبيين من أرض المسلمين سنة 1270 . فلما دخل الفرنسيون إلى دمشق بعد الحرب العالمية الأولى ، وقف القائد الفرنسى على قبر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وقال : « ها نحن عدنا يا صلاح الدين ! » أو لم تمضي على عهد الملك الصالح سبعة قرون ونيف ألم تنبذوا أثناء النصرانية . ألم تدفنوا الذكريات الصليبية ومرارة تلك الهزائم ؟

كلا ! فالعظمة العسكرية للإمبراطورية التركية شوكة الإسلام تنادى ضمائر أوروبا العسكرية بالثار منها . والقدس الأرض والرمز قطب المطالبة ، هدف الملاحقة الحثيثة . وهامهم النصارى العرب يتخلون عن قضية العروبة بعد أن ساهموا فى تمزيق المسلمين ، وهامهم يتحالفون مع اليهود ، ويعود النصر إلى معسكر أهل الكتاب متسجدا فى تركيز دولة اليهود .

إن النصارى العرب ، من موارد فى لبنان وسوريا ، ومن أرثوذكس ، ومن أقباط ، ومن بروتستانت وكاثوليك أعطوا ثقتهم يوما للعرب المسلمين . وهم اليوم ، بعد أن أصبحت لهم جاليات غنية فى مهاجر الأمريكتين وفى سائر البقاع ، يتخلون نهائيا عن ستار الإيديولوجيا العربية الذى أخفوا وراءه زمانا طموحهم الطائفى . تملل فى مصر ، وجيش مقاتل فى لبنان ، وخطوط مطالبة نصرانية عربية تنتسج شيئا فشيئا مع المخطط اليهودى الأمريكى .

كان النصارى العرب ولا يزالون أقلية ضئيلة العدد ، عاشوا قرونا جسما غربيا كل
الغربة فى المجتمع المسلم . ووقع عليهم فى فترات ، منها ولا شك فترة الحكم العثمانى ،
ضيم وظلم كما وقع على العرب المسلمين . وفى عهود انحطاط المسلمين الأخيرة شعر
النصارى العرب أنهم أجانب فى وسطهم بكل معنى الكلمة . فكان السبق إلى التعلم فى
المدن الكبرى والهجرة إلى أوروبا وأمريكا مسلكهم المبكر للخروج من الرقبة التى ظل
إخوانهم العرب المسلمون يعانون منها . ربة اقتصادية وسياسية واجتماعية . أقلية زاد من
شعورها أنها مهضومة الحقوق انتماء الأغلبية فى المجتمع إلى دين الحاكم التركى ، ففضلت
العيش فى بلاد الغربة مُقْتَلَعَة الجذور على العيش فى مهانة . وكان هذا خاصة نصيب
نصارى لا ينتمون لعشائر قوية ، ولا تحميهم أحلاف مثل الأحلاف القديمة والمعاصرة بين
طوائف الجبل اللبناني مثلا .

لم يدخل النصارى العرب فى ولاء لأية دولة من الدول التى تعاقبت على بلاد
المسلمين ، رغم ما كان لأفراد منهم من الواجهة الرسمية والخطوة الاقتصادية والسياسية
لدى البلاطات . كان منهم أثناء الحروب الصليبية جواسيس ومساعدون للعدو ، وهذا أمر
طبيعى ومنتظر . كان ولاؤهم الدائم للأسرة والقرية والطائفة . ولعل بعض حذاقهم
وأذكائهم المغربين المتشبعين بالفكر اللبرالى الغربى أو الاشتراكى الماركسى ظنوا ساعة أن
الفكرة القومية بشير الخلاص ، وأن الدولة القومية سفينة الخلاص .

عاشوا زمانا فى مجتمع مغلق يشكلون شريحة اجتماعية منفصلة ، لهم ذهنيتهم
الخاصة ، وعاداتهم ، وثقافتهم المحلية المرتبطة بكنائسهم ، ومواقفهم السياسية ، وحصونهم
فى الجبل إذا كانوا موارد ، أو « انسجامهم » إذا كانوا أقباطا فى القاهرة والصعيد .

فلما اتصلوا أواسط القرن الماضى بالفكر الغربى بواسطة مدارس التنصير توسموا
ملاحح مستقبل يضمن لهم الحرية ويخرجهم من مرتبة التبعية والغربة . جاءهم الفكر
اللبرالى بمفهوم الحرية فتلقفوه بديلا مرجوا لمفهوم الذمية ، جاءهم بوعد النجاح
الاقتصادى المدنى الذى يكافئ الجهد فأحبوه عوضا عن الحظ المحتوم لجهود محلية عقيمة ،
جاءهم بصورة متكاملة لحضارة متقدمة مخالفة ومنافسة لحضارة المسلمين الرائحة
للأفول ، فكان الإغراء عليهم أقوى منه على أبناء الأغلبية المسلمين الذين كان لهم فى

مجتمعهم المكان الأرواح .

حمل إليهم الفكر اللبرالى ، والماركسى من بعده ، بذور التحرر من الدين ، ومن العقائد الغيبية ، وبذور التمرد العقلانى على كل موروث . ونبغ من النصارى العرب ، من رهبانهم ومن عامتهم ، صحافيون وناشرون وبحاثون عملوا على بث تلك الأفكار والترويج لها . فكانوا الرعيل الأول فى ركب العلمانية .

اصطدموا أول الأمر بالفكر المسلم المحافظ المتخلف عنهم فى الاطلاع على أفكار العصر . فكانت مقاومة شديدة ، ما لبثت أن أسفرت عن فجوات وثغرات دخل منها الفكر العلمانى شامخ الرأس يوم أقنع النصارى العرب بعض المسلمين العرب بوجاهة ما يدعون إليه ، وتقدميته ، وتحضره ، وتفوقه .

★ ★ ★

الدين للآخرة فقط !

لا تكتمل الصورة عن العلمانية وحملتها الأولين النصارى العرب دون عرض مواز لحركة الإصلاح الإسلامية والنهضة الإسلامية على يد جمال الدين الأفغانى وتلامذته . ولن يقودنا ذلك العرض بعيداً عن مقاصد هذا الكتاب ، وهو كتاب منهاج لا كتاب تاريخ.

نكتفى بالاستدلال على أهمية تأثير النصارى العرب فى عهد مبكر من عهود « النهضة » « والإصلاح » ، ذلك التأثير الذى بلغ أوجه ، فيما نظن ، فى الأربعينيات من القرن العشرين بتاريخ النصارى عندما أسس النصرانى ميشيل عفلق حزب البعث العربى .

كتب عبد الرحمن الكواكبي (1854 - 1902) وهو من أبرز ممثلى الفكر النهضوى فى كتابه طبائع الاستبداد يقول : « يا قوم - وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين - أدعوكم إلى تناسى الأحقاد والإسآآت ، وما جناه الآباء والأجداد (...) . يا هؤلاء نحن ندبر شؤوننا ، نتفاهم بالفصحى ، ونتراحم بالإخاء ، ونتواسى فى الضراء ، ونتساوى فى السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الآخرة فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهى : فلتحى الأمة ! فليحى الوطن ! فلتحى طلقاء أعزاء ! أدعوكم وأخص منكم النجباء فلنصبر لنتصبر فيما إليه المصير . » (23)

كيف ذهب يسبح فى بيداء الوهم واحد من أكثر الرجال وعياً فى ذلك الوقت ! كان الكواكبي رحمه الله شعلة من الثورة على الاستبداد ، كان من نجباء الاتجاه النهضوى ، يشبه جمال الدين الأفغانى فى انقطاعه عن الوظيف وعن كل شؤون الحياة ليتفرغ مثله للثورة ويحترفها ويفنى فى ظلالها عمره . وتمتاز اليقظة النهضوية « الأفغانية » عن اليقظة النصرانية أن الأولى تسعى للتحرر من النير العثمانى بالوسائل الثورية بينما تتوسل الثانية إلى نفس الهدف بالتسلل الثقافى لنسف البناء من أساسه . ومع ذلك يعد كتابا الكواكبي طبائع الاستبداد وأم القرى إنتاجين ثقافيين من أهم ما كتب فى ذلك العهد ، ينتقد فى الأول الدولة العثمانية ، وفى الثانى ينتقد المجتمع المسلم ويبرز أمراضه . ولعل نقده

(23) نقلا عن مجلة « الفكر العربى » ص : 482 ، العدد 22 ، سبتمبر 1981 .

المتبصر ذاك لا يزال فى كثير من نواحيه أكثر جرأة وأوضح منهاجا مما يكتب فى هذه السنين الأخيرة حيث يغلب على كتابات العرب والمسلمين إما الشتم الانفعالى أو الرثاء للنفس والتفخ فى الأمجاد بما يغطى الحقائق ، فيستحيل الفهم ويختلط العمل .

الخطب الكامل أتى هذا العمل من استناد صاحبه فى نقده إلى المفاهيم الليبرالية العلمانية التى طفت على فكره ، فوصف المرض الاستبدادى وحالة الأمة السيئة ولم يجد من دواء يقترحه ، وهو المسلم سليل بيت الشرف والعلم ، سوى الوصفة العلمانية : فصل الدين عن الدنيا .

ولم يتفرد الكواكبي بهذا المذهب من بين دعاة النهضة والإصلاح ، فالزعيم الثانى فى تلك المدرسة نفسه ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، يدعو نفس الدعوة ، بنفس الوضوح والقطع . الفكرة إذن كانت رائجة فى ذلك الوقت ، وما يفيدنا الكواكبي إلا بتوجهه إلى فئة « الناطقين بالضاد من غير المسلمين » ليدلنا على أهم المخاطبين الذين تقدم لهم هذه التنازلات .

يقول الشيخ محمد عبده عفا الله عنا وعنه بنفس القطع والوضوح : « لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، يأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا القرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم » (24) .

هل كتب الشيخ هذه المقالة قبل الثورة العراقية التى شارك فيها ؟ هل هو برنامج مقترح لهذه الثورة التى كانت قومية مسلمة علمانية لا تتميز فيها الاتجاهات وسط الغمرة الوطنية العاطفية ؟ أم كتب بعد رجوعه من المنفى وتفرغه لإصلاح القضاء والأزهر والأوقاف ؟ هل يعنى بما يقرره الأولون « علوم الأوائل » أى الفلسفة ؟ وأية فلسفة ؟

كان النهضويون الإصلاحيون ينتقدون الجمود العقلى والتقليد ، ويشيدون بالعقل الاعتزالي الحر ، لكنهم لم يشعروا ، وهم معذورون ، أن انبهارهم بالحضارة الغربية

(24) نقلا عن كتاب د . عمارة : « تحديات لها تاريخ » ، ص : 202 ، ط . 1982 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

وحماسهم الوطنى العارم دفعاهم إلى نقيض ما كانوا ينتقدونه ، فأوغلوا فى السطحية العقلانية ، وسقطوا فى شرك الفكر العلمانى ، حتى بدر من أساطينهم ما نقرأ صراحة برَاحةً من أن الدين للآخرة فقط ، وندبر ما سوى ذلك أو نتفاهم على تبنى « ما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون » .

إن فكر الإصلاحيين النهضويين ، ما هو إلا توالد لنفحة الأفغانى رحمه الله موقظ الشرق ، والرجل كان شهاباً ثاقباً ذكاء ، وغيره ، و ثورة على الاستعمار . فكل الوسائل كانت سائغة عنده للتخلص من الاستعمار الإنجليزى ، لذلك انخرط هو وتلامذته ، ومنهم محمد عبده ، فى المحافل الماسونية ، وجاملوا إلى حد الإخلال بالعقيدة التيار العقلانى . دليل ذلك تأويلات محمد عبده عفا الله عنه للغيب . ثم ها هى ذى نصوصهم تدعو للعلمانية بما لم يزد عليه الشيخ على عبد الرازق من الجيل التالى إلا بصياغة « أصول الحكم فى الإسلام » صياغة مفلسفة .

إن هؤلاء الإصلاحيين النهضويين ، رغم أخطائهم الفكرية والسياسية والعقدية ، هم مؤسسو المدرسة الإسلامية الحديثة ، عاشوا فترة اليقظة الأولى فانبهروا مع الناس وتأثروا بمعاصريهم وأثروا ، وغالبوا التيار التغريبي العلمانى اللبرالى وانغلبوا . لكن أفكارهم هى أساس بنى عليه رجال أثبت خطيئاً على منهاج السنة مثل الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما الله . ومن مدرستهما تخرج الإمام حسن البنا رحمه الله . وكل جيل أخذ ممن قبله عناصر وظفها فى الفهم المستقبل .

★ ★ ★

تموجات وتيارات

تموّج تفكير المثقفين العرب ، تحت قيادة النصارى العلمانيين ، مع الأحداث السياسية والرغائب القومية والانتفاضات الموازية لمطالبات « جمعية الاتحاد والترقى » التركية القومية والمتساندة معها . واستعرت نار الحرب العالمية الأولى فوجد القوميون العرب المنضرون تحت لواء الشعارات التي رفعها الكواكبي « ليحيى الوطن ، لتحيا الأمة ! » وعود الإنجليز والفرنسيين تمنّيهم بالغد المشرق . وفي خضم الثورة العربية ، وحمى الفرحة بانزياح كابوس الاستبداد تقدم الفكر العلماني خطوات ، وتمكن الخواجات النصارى فى الأرض الثقافية والسياسية . فلما بدت خديعة الإنجليز والفرنسيين بعد أن ألفت الحرب أوزارها وانهارت الإمبراطورية العثمانية ليحل الاستعمار محلها ، اتجه المثقفون العرب إلى النضال السياسى . وفى كنف الأحزاب السياسية بمصر والشام والعراق ترعرع الفكر التغريبي العلماني اللبرالى وازدهر .

كان من المثقفين جناح متطرف ، رأيه الذى نشره فى الجرائد والكتب ، وبشر به علانية فى وجه الأزهريين والإصلاحيين والسلطة المحايدة ، أن نطرح الشرقية وأفكارها ومخلفاتها ، ونأخذ الحضارة الغربية « بخيرها وشرها ، حلوها ومرها » كما قال واحد من زعماء هذه الطائفة طه حسين فى كتاب مستقبل الثقافة فى مصر . قائد هذا السرب لطفى السيد ، ثم النصراني القبطى سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمى . وقد طبق المتفرنج طه حسين منهج اللبرالية العقلية فى دراسة الأدب الجاهلى فجاء بما لم تستطعه الأوائل ليطنعن فى أصول الوحي نفسه . وتميز إسماعيل مظهر بين العقلانيين ، إذ كان نظره أن يتحرر العقل من كل سلطة خارجية ، يعنى الدين .

وعام الكل فى الخليط الثقافى العصرى يومذاك ، المحلى منه والعالمى ، من داروينية ، وقومية فرعونية أو عربية ، ودستورية ديمقراطية . والصوت الإسلامى يرفعه فى مواجهة الإعلام العلمانى القوى قلة من الكتاب أمثال الشيخ رشيد رضا ومصطفى صادق الرافعى ، ومحِب الدين الخطيب رحمهم الله .

تموج الفكر مع الأحداث والسياسات والموضات الثقافية ، لكن الإشكالية الأساسية بقيت على حالها ، وهى إشكالية الجمع بين الحداثة والتراث ، بين الدين والدنيا ، بين الروح والمادة ، أو التفريق بينهما . كانت الهزيمة النفسية أمام إنجازات الغرب وتألق حضارته ، والهزيمة السياسية أمام الاستعمار ، والباعث الذاتى ، المندس فى الذات ، وهم النصارى العرب المغربون ، كلهن يدفعن فى اتجاه تقليد الغرب وتبنى ثقافته . وكان النفور الذى يشعر به المثقفون المتخرجون من مدارس التنصير ومن جامعات الغرب تجاه انحطاط مجتمعهم وتزمت الذهنية التقليدية يرغبهم فى التفرنج فى العادات والأخلاق ونمط الحياة . إلى الجانب الآخر كان الأزهريون الملتصقون بالأرض والشعب ، الفقراء أبناء الفلاحين ، وكان العلماء المعممون من أبناء الطبقة الميسورة فى الشام والعراق ، لم يزوروا أوروبا ولا ذابوا محبة فيها . فبقوا العنصر الثابت الذى دافع عن الدين من مواقع تتراوح بين التقليد والجمود على الماضى . وهذا كان سواد الأزهريين . لم يتمكنوا وهم فى مواقعهم المنعزلة من الفهم الواعى للعصر وحاجاته ، والغرب وحضارته .

نعيش اليوم بحمد الله ارتداد الموجة ، والريح الرخاء تهب فى اتجاه العودة إلى الإسلام . فى تلك العقود من السنين ، كانت الريح العاتية تهب فى اتجاه تقليد المغلوب للغالب . لم يسلم من تيارها أزهيون من أمثال الشيخ على عبد الرازق عفا الله عنه والشيخ عبد المتعال الصعيدى عفا الله عنه ، ولا حتى بعض أئمة الأزهر كالشيخ محمد شلتوت غفر الله له فى بعض فتاويه .

بين مد وجزر تغالب التياران ، وتداخل الفريقان ، وتبدلت التأثيرات . فمن مشايخ نفخت عليهم رياح التغريب والعلمنة مثل الكواكبي ومحمد عبده ومن ذكرنا ، ومن مثقفين زاروا الثقافة الغربية وسكنوها أحقاباً ثم رجعوا إلى الإسلام والعروبة ، منهم إسماعيل مظهر زعيم النشوية يوماً ما ، وحسين هيكل ، والعقاد ، ومنصور فهمى ، وحتى طه حسين فى إسلامياته .

★ ★ ★

الاشتراكية القومية

ما بين الحربين العالميتين انغرزت الاشتراكية الإصلاحية والشيوعية الثورية فى الواقع الدولى على إثر الثورة البلشفية فى روسيا ، ومن أثر الأزمة الاقتصادية الحادة فى الثلاثينات . وارتفعت المطالبات بالعدل فى الدول الأوروبية وفى البلاد المستعمرة مع شعارات التحرر الوطنى عقيب الحرب العالمية الثانية فى الوقت الذى كان اليسار الأوروبى ، ومنه الأحزاب الشيوعية ، تساند هذه الحركات . كان العالم حديث عهد بالمغامرة النازية التى وضعت على وجه أوروبا علامة من علامات الجاهلية المتأصلة . تزايد الشيوعيون فى العالم ، وهم فى أوج الافتخار بالعشرين مليون ضحية التى سقطت من الروس فى الحرب العالمية الثانية ، وأيدوا شعارات التحرر والعدل بين الشعوب ليزرعوا فى معسكر الخصم البرجوازي بذور الثورة بعد أن استولوا على نصيبهم من غنائم الحرب واحتلوا أوروبا الشرقية كما حولتهم قسمة معاهدة يالطا .

فى بلاد العرب والمسلمين أخذ الفكر الشيوعى والانتماء القومى يتعززان على حساب الثقافة البرابرة السابقة ، وأخذت الحركة الإسلامية على يد الإخوان المسلمين فى الشرق العربى والجماعة الإسلامية فى الهند ، ثم باكستان ، تراحم دعوة وتنظيما .

كلما أعلن الاستقلال السياسى فى بلد من بلاد المسلمين وما سُمى بعدئذ بالعالم الثالث اكتشف الوطنيون بعد الاستيلاء على مقاليد الدولة أن ذلك الاستقلال ليس إلا مقدمة لمشاكل عويصة كل منها يطلب حلا عاجلا . ومن أهم هذه المشاكل المشكلة الاجتماعية الداخلية والموقف الدولى من إحدى الكتلتين . فبرزت فى الأفق السياسى كلمة الاشتراكية وفكرة الاشتراكية والمذهب الاشتراكى . وأصبحت الكلمة تعنى فى خيال المجتمع السياسى وعند المثقفين ما كانت تعنيه كلمة « حرية » وكلمة « ديمقراطية » من قبل . وسبقت الكلمة الجديدة والمفهوم الجديد ، الذى تكسوه الدعاية الروسية والفكر الماركسى ألوان المطلب الأسطورى والأمل المجنح ، كل كلمة غيرها وبزّت .

ربما تكون كلمة « قومية » وهى كانت العماد الإيديولوجى لحركات التحرر ، هى

الشعار الوحيد الذى استطاع أن يصمد إلى جانب الاشتراكية . كل سياسة تتخذها الحكومات المستقلة حديثا كانت تبدو هزيلة متخلفة ما لم تحمل لقب الاشتراكية . ووقع استهلاك كبير للفكرة ، وأضيفت الصفة لكل موصوف يقبلها أو يتنافر معها . ومن جملة الموصفات الإسلام . ويبدأ التلفيق من عبارة « الإسلام الاشتراكى » أو « الاشتراكية الإسلامية » .

شيئا فشيئا أزاحت الاشتراكية القومية الحركة الإسلامية من طريقها فى مصر بعد « ثورة » الضباط الأحرار . وطلع العقيد جمال عبد الناصر فى سماء العرب نجما يتألق بالوعود الكبيرة : بالقومية ، بالوحدة ، ثم بتاج الكل : « الاشتراكية » . الوحدة ، حتى على مستوى العروبة ، لا تقتضى عداء الإسلام لولا أن الضباط الثوار والنخبة المثقفة الإدارية التى التفت حولها كانت علمانية فى فكرها وسلوكها وتوجهاتها ، ولولا وجود الخمسة فى المائة من النصارى ، ولهم فى مصر والشام شأن . على مستوى الحكم والتنفيذ ، كانت المسألة الاشتراكية « علمية » ، وتأميما ، وحجما منتفخا بعد مؤتمر باندونج الذى ولدت فيه حركة عدم الانحياز ، واكتسب فيه عبد الناصر هيكل القائد الدولى ، وخصوصا بعد الهجوم الثلاثى من قبل اليهود وحليفتيهم فرنسا وإنجلترا ، وما تلاه من جلاء أرادته الأمريكانيون ونسبه العقيد لنفسه ونظامه ، فأكملت له بكل ذلك مقومات البطولة التى ركزتها الخطابة المتأججة و« صوت العرب » الحاضر فى أذن كل عربى يتوسم ظهور البطل الملهم .

على مستوى الحكم كان ذلك ، أما على مستوى الخطاب ، فكان الإسلام كلمة مشكورة . ميشيل عفلق ، منظر القومية الأول ، يدبج مقالات ورسائل فى تمجيد « الإسلام العربى » و« النبى العربى » . وعبد الناصر بطل القومية يصلى الجمعة رسميا ، ويعطى الإسلام كلمة تسامح كلما عنت الفرصة ليمتص التطلعات الإسلامية فى الشعب ، بينما الإخوان المسلمون يوفدون للمشائخ ، ويسامون سوء العذاب فى أقبيع السجون .

كان التلفيق عملية إيديولوجية ، بمقتضاها تلبس التجربة العربية للاشتراكية ثوبا من الألفاظ الإسلامية . وفى البلاغة العفلية تتقاطر العواطف القومية الرومانطيقية ندى ، وتتصاعد بخور الأُمجاد الإسلامية .

الحل التلفيقي

بعد هزيمة 1967 النكراء أمام اليهود ، فقد البطل القومي عبد الناصر بعض شعبيته ، وتراجع القوميون العلمانيون قليلا في الحيز الثقافي ، وانفتحوا للحوار من مواقفهم المهزومة مع الإسلام . وعلى قدر تجمع الاتجاه الإسلامي في تكتلات لها بال يزداد ميل العلمانيين القوميين إلى الحلول التلفيقية ، ينظرون لها ، ويستنبطون لها سوابق ، ويتعلقون بعباءة « الشيخ الإمام » محمد عبده رحمه الله وغفر له ، وينشرون كلمة الكواكبي رحمه الله وغفر له : « الدين للآخرة فقط » ويحيون ذكرى المعتزلة ، ويفخرون بعقلانية « الفلاسفة المسلمين » ويسبقون التفكير الإسلامي إلى منابع التاريخ ليؤصلوا وجهة نظرهم في مقالات موروثة ، وأحاديث وآثار مدسوسة في بطون الكتب .

من أصحاب التلفيق دكاترة أزهيون يحبهم العلمانيون ويصفونهم بأنهم « أهل التنوير » مثل الدكتور محمد أحمد خلف الله . ومنهم دكاترة جامعيون ملأوا الدنيا كتباً وأبحاثاً موثقة المصادر محبوكة النسيج مثل الدكتور محمد عمارة . إن تقدم الإسلام في الميدان خطوة رأيتهم يتقدمون في التنظير التلفيقي خطوات . الثورة الإسلامية في إيران أيقظتهم كما أيقظت العالم إلى أن « المخزون النفسي » في الشعوب الإسلامية طاقة حبلية بكل المفاجآت ، فتسمع الحلول التلفيقية التوفيقية وهي تتحول نغمة نغمة أناشيد جماهيرية .

المجادون الصرحاء من أهل التلفيق يدافعون عن العلمانية القومية ويكشفون نواياهم الحاضرة والمستقبلية ، لا يعطون الإسلام أكثر مما يعطى لضرورة واقعية لا مناص من التعامل معها ، لا يعطونه أكثر مما تستحق مخلفات أثرية وعقائيل تاريخية هي من السلبيات التي يحسن أن تدارى حتى تضمحل مع الأيام . أعلى أبصار هؤلاء غشاوة . أم هي « الصرامة الفكرية » و « أمانة » المثقفين ؟

يدفع العلمانيون دعوى الإسلاميين أن الإسلام يحتوى على نظام كامل نهائي يحل مشاكل المجتمع البشري في كل زمان ومكان . ويتهمون الإسلاميين بأنهم يريدون التفرد بالحكم والسيطرة على الميدان لأن الفقهاء وحدهم يحتكرون القدرة على الاجتهاد

وتأويل النصوص فما يأمن أن يقيموا دولة التعصب وسفك الدماء؟

بعبارة أخرى يدافع العلمانيون الأكثر صراحة عن زعامتهم الفكرية وإيديولوجياتهم الشمولية، قومية أو ماركسية، كما يدافعون عن مواقع أقدامهم السياسية.

يتقدمون بحججهم من محكمة التاريخ التي تتهمهم بكل ما لحق العرب والمسلمين من هزائم بعد تهمة إسقاط « الخلافة العثمانية » فيوجهون اللوم للإسلام. هجوم على الإسلام لتنسى التهم. كيف يمكن أن يشتمل القرآن وتشتمل السنة الجواب عن كل المشكلات الحيوية لمجتمع عصرى يختلف كل الاختلاف عن المجتمع القبلى الذى شاهد ولادة الإسلام؟ كيف يمكن تطبيق تلك التشريعات العتيقة التى نزلت زمان حضارة الجمل فى عصر الصواريخ والكواكب الصناعية؟

حيث تكون إشكالية الإسلاميين: « كيف نرفع من أصولنا أحكاما تحتضن مشكلات العصر؟ » تكون إشكالية العلمانيين الملقين: « كيف نغير فهمنا للإسلام فلا نربط به كل نظامنا الدنيوى؟ » ويزعمون أن الكتاب والسنة ليسا ملزمين فى كل شؤون الحياة وإلا لما كان القياس، وهو رأى بشرى، ولما كان الإجماع، وهو إرادة بشرية، مصدرين أساسيين للتشريع.

مع هذه المطاعن المبدئية فالملفقون يعترفون بالضرورة السياسية لمصانعة دين الأغلبية وأخذ بالاعتبار. بعبارة أوضح: إنهم يوصون باحتواء الإسلام « المتعصب » « المتطرف » « الأصولى » واقتراح إسلام تقدمى وحدوى اشتراكى قومى تلافيا للضغوط الإسلامية القوية التى يخاف أن ترفع دولة الرجعية والطائفية والبرجوازية الإسلامية الإقطاعية.

هنا يلتقى مشروع « الإسلام الأمريكى » كما كان يقول سيد قطب رحمه الله فى الخمسينات مع مشروع الإسلام التلفيقى. كلاهما يخاف ظهور الدولة الإسلامية، وكلاهما يلتمس بديلا عن إسلام الكتاب والسنة فى طبخة إيديولوجية ما، لا تأخذ من الإسلام إلا اسمه لتطرحه على حقائق مذهبية وسياسية تخدم هذه الدولة العظمى، أو هذه الطبقة المثقفة، أو هذا التيار الحزبى، أو هذا المستقبل المنحاز، أو كل ذلك معا.

يريد الملفقون تفادى الأخطار التى وقعت فيها السياسات المعادية للدين. هما عيبان رئيسيان لخصهما أحد الناصرين البارزين، الدكتور محمد النويهى، فى كتابه الذى

يحمل العنوان - البرنامج : نحو ثورة في الفكر الديني . قال : « أول الخطأين أنهم لم يقدروا تقديراً تاماً مدى سيطرة الدين على عقول المؤمنين به ، وهم كثرة الناس ، وأن هذه الكثرة الغالبة إلى الآن ليست مستعدة للتنازل عن معتقداتها الدينية مهما يقيم لها الدليل والبرهان على أن هذا التنازل يكون في مصلحتها ، مصلحتها الفكرية والمادية معا » . قال : « وثاني الخطأين أنهم لم ينتبهوا إلى أن العيب ربما لا يكون في الدين نفسه ، بل قد يكون في إساءة فهمه وإساءة استعماله » . وينتهي الذكي إلى الاستنتاج التالي : « الحملة على الدين نفسه ليست إذن سوى محاولة كيخوتية (25) مبددة للجهود . هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن ندركها جميعاً مهما يكن رأينا الخاص من صحة الدين أو خطئه » . والعلاج عنده : « فلنوجه جهودنا إلى محاولة أرشد وأنفع : كيف نقنع الناس بألا يتخذوا من الدين حجر عثرة يقيمونه أمام كل رأي جديد . وكيف في تحقيق هذا الهدف نتجاوز الإصلاح الجزئي المبعثر الذي انحصرت فيه جهودنا حتى الآن [..] . كيف نروج بينهم تلك النظرة العلمانية التي ذكرناها » (26) .

ويعود الكاتب يشرح تلفيةقة مستندا إلى « مصلحنا العظيم الإمام محمد عبده وتلاميذته ، وأتباعه في مدرسة المنار » ، مندداً بالخطأ السياسي الذي ارتكبه الثورة الفرنسية والثورة الروسية في محاربتهم الدين . وعندما ينتهي من اللف والدوران يصرح بلب فكره قائلاً : « هذا هو رأينا الذي نصرح به : إن كل ما في القرآن وما في السنة - دعك من مذاهب الفقهاء - من تشريعات لا تتناول العقيدة وما يتعلق بها من شعائر العبادة ، بل تتناول أمور الدنيا ومعاملاتها وتنظيمها وعلاقاتها ، كل هذه التشريعات جميعاً بلا استثناء واحد ليست الآن ملزمة لنا في كل الأحوال ، حتى ما كان منها زمان الرسول [نقول : ﷺ] من بابي الفرض والتحريم ، لم يعد الآن بالضرورة كذلك ، بل لنا الحق في أن ننقله إلى بابي النذب والكراهة ، إن لم ننقله إلى باب المباح » (27) .

لا تجد في كتب الدكتور عمارة مثل هذه الصراحة . لكن تجد نفس التمجيد

(25) نسبة إلى (دون اكيخوت) .

(26) « نحو ثورة في الفكر الديني » ، ص : 98 - 99 ، ط . الأولى ، دار الآداب ، بيروت ، 1983 .

(27) المصدر السابق ، ص : 148 .

« للشيخ الإمام محمد عبده » رحمه الله ، ونفس الإجلال للفكر « التنويرى » الذى صرح به منذ ما يقرب من قرن بأن الدين للآخرة فقط . ما يكتمه الدكاترة الأكاديميون صرح به هذا الدكتور المناضل ، وأوصل الأمور إلى نتائجها المنطقية . فلا بأس عنده من مداراة الشعب الذى لا يريد الانفصال عن دينه ريثما نروج للعلمانية . ننصب للشعب واجهة دينية ريثما يصل إلى درجة النضج فيقبل تغيير « كل ما فى القرآن والسنة » فأحرى أقوال الفقهاء ، فلا حلال ولا حرام إلا ما قررت الإدارة السياسية .

يكفينا هذا القدر لننبه إلى خطر الحاملين لرايات الإصلاحية النهضوية العلمانية .

★ ★ ★

ركيزة الانحطاط

هى علمانية واحدة ، إنما تتفاوت درجة العداء للدين وتختلف الزاوية الإيديولوجية لنقد الدين وإن تماثلت الأسباب السياسية للتعامل التلفيقي معه . هناك رأس السهم الماركسيون ، الدين عندهم عاهة وعيب فلسفيا ، أفيون شعوب سياسيا واجتماعيا . هناك جموع متنوعة من الليبراليين ، هناك فلول واسعة من الناصريين . وقد رأينا عينة من فكرهم نستطيع أن نقدرها ممثلة لرأى الساكتين . هناك القوميون العرب من كل صنف . وهناك الرأى العام المثقف الذى يتجاوب مع العلمانية ، خصوصا إذا كانت تقترح تليفقية أقل « صراحة » من تليفقية الدكتور النويهى .

الكل يجولون فى البحث عن أحسن وسيلة لتمشية إيديولوجيتهم دون أن يصطدموا بالعاطفة الدينية للجماهير . من كان منهم يستخف بالدين ، ومن يجهله ، يبنى على هذه المسألة : وهى أن المتدينين والدعاة إلى الإسلام عاجزون عجزاً نهائياً عن فهم العصر ومتطلباته . فأما العلماني المرن ، وقد يعلن أنه مؤمن متدين ، فيدعو للأخذ بالأصلح فى الدين وتوفيقه بالأصلح فى الفكر العصري . وأما العلماني الذى يغلى غليانا ، لما يراه من السخط الشعبى العام ومن اليأس والرفض للسياسيات القومية الاشتراكية الانفتاحية والثورية ، فقد يفقد أعصابه وينسى مراعاة الرأى العام المسلم ، ويبين عن عدائه الأصيل للإسلام.

هذا النوع المتشنج من العلمانيين الذين لا يضيعون جهودهم فى تهيه صيغة تليفقية قد يكونون أقل العلمانيين خطرا لوضوحهم . إذا عارضهم معارض بأن سبب فشل التجربة الناصرية هو علمانيتها أجابوا بأن السبب هو بالعكس إبقاؤه على « ركيزة الانحطاط » وهو الإسلام ، وتعامله معه تعامل لا غير ثورى . وتجد ماركسيين يدافعون عن تجربة عبد الناصر عدوهم يوما ما .

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يجعل الطائفة الدينية وشيطا بين الفرد والدولة ، فيبعد كل إمكانية للتجميع الديمقراطي العقلانى .

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يرسم خطأً تراجعياً للتاريخ حيث يقنع معتنقيه بأن السلامة في اتباع السلف واقتفاء أثره، فالمستقبل خلفنا لا أمامنا، بينما تجسد في الإيديولوجية الشمولية، الماركسية مثلاً، النظرة الصحيحة إلى المجتمع والتطور التاريخي المنفتح على مستقبل يمكن أن نتعامل فيه مع العصر وقد ألغينا قيود الماضي وسلطته.

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يلغى الإدارة البشرية، ويلغى السياسة كعلاقة بين البشر، ليحكم إرادة خارجية، إرادة السماء، وليفرض على المجتمع سلطة أبدية لا تتغير، يجسدها الاستبداد الفردي الذي كان دائماً أسلوب الحكم الإسلامى.

يعتبر العلمانيون الصرحاء كل الصراحة أن الإسلام سمة من سمات التخلف، لأنه لا يتيح تنظيم المجتمع على أسس ديمقراطية، ولا يتيح تحقيق المساواة بين الطوائف المتعايشة في المجتمع. كارثة لبنان وما نشأ عنها، بل نشأت عنه، من تمزيق للمجتمع أرادته النصارى وحلفاؤهم اليهود وصنعوه، تعزى للإسلام وتعصبه. وفي ضوء المأساة اللبنانية تبدو العلمانية الضمان الوحيد لإعادة وضع كانت العلمانية سبباً في تفجيره. كانت علمانية على السطح تحت أذيالها تعايشت الطوائف في لبنان بضعا وثلاثين سنة تحت الهيمنة الفعلية للنصارى، تحت القهر النصراني، والاستعمار النصراني. كان الميزان الطائفي قبل الحرب الأهلية ميزان قوى طائفية يزينه الطلاء العلماني للدولة ويخفيه. فلما اختل ذلك التوازن واقتضحت الطلّات يدعو القوميون والماركسيون لتجربة علمانية أخرى تحتل بمقتضاها الإرادة البشرية محل الإرادات «الخارجية» الطائفية..

العلمانيون الصرحاء لا يثقون بأن الإسلام يمكن أن يرعى العقلانية الضرورية لتقدم المجتمعات الإسلامية. بدون العقلانية لا يمكن أن نستخدم الإمكانيات التي بين أيدينا لتحقيق التنمية، ولا أن نبني دولة عصرية، ولا أن ننظم جهازاً إدارياً، ولا أن نتراكم عندنا الخبرة العلمية والتكنولوجية. الإسلام غيبية تتناقض مع العقلانية وتحاربها.

الإسلام لا يسمح بالنظرة العقلانية الضرورية لفهم الواقع فهما مطابقاً. هنالك الأفكار المتقبلة، والأوهام الدينية والجبرية التي تنفى السببية. في لبنان نصارى هم أكثر تقدماً حضارياً من المسلمين لأنهم كانوا أسبق إلى العلمانية. هم لب ذلك المجتمع وروحه.

نحجب نحن: لذلك أدى ذلك التقدم النصراني العقلي الحضارى إلى النشاط العضلي

المارونى الذى خرب لبنان . أى شىء خرب البلاد والعباد ، الإسلام الذى حكم لبنان أربعة عشر قرناً لم تنل أثناءها إلا نصيبها بين سائر بلاد الإسلام من عنف وحروب وثورات ، أم المارونية العقلانية المتحضرة وحلفاؤها اليهود وما فعلوا بلبنان فى عشر سنوات ؟ من الذى يهدر الموارد المالية والطبيعية ، من الذى يبيد البشرية هناك ، الإسلام الذى حُضِن الأقليات النصرانية أربعة عشر قرناً أم التدمير اليهودى المارونى الذى نسف البيوت وشرّد الأراامل واليتامى بعد قتل الرجال ؟

العلمانيون يزعمون أن توحيد العرب لا يمكن مع تدخل الدين فى شؤون الدولة . يرون أن التجزئة التى يعانىها العرب تجزئة سياسية وإجتماعية . من قطر إلى قطر عدّات وتنافر تجدد تفسيرها فى تعارض الإيديولوجيات وإستراتيجيات الأحلاف . وداخل كل قطر تناقضات عمودية طائفية تقف فى وجه الاندماج الاجتماعى .

أخذ العلمانيون فى ضوء التخوض المارونى فى لبنان يرجعون على استحياء بعض اللائمة على التعصب النصرانى ، لكن الإسلام لا يزال هو الخصم . ويا لها من نظرة عقلانية مطابقة للواقع ، هذه النظرة التى تنسب كل ظاهرة إلى الانحطاط العربى وركيزته المعلومة فى أدبيات التعصب ضد الإسلام ، مراغمة للحقائق الميدانية السافرة .

ومن الغريب أن نجد العلمانيين يقلّبون الحقائق ولا يكتفون بتجاهلها . فالإسلام عندهم هو المسؤول عن السقوط الأول ، وعن العجز عن النهضة . الإسلام لم يوقف الانهيار المتزايد للأمة ، ولم يستطع مجابهة التخلف والتشتت . ما فعلته الأنظمة العلمانية البرالية والاشتراكية التى عزلت الإسلام وحكمت بالقانون الوضعى وتوجهت وفق التعاليم اللاإسلامية هو من فعل الإسلام سلماً وإيجاباً .

الإسلام موضوع فى قفص الاتهام . بذمته وعلى مشجبه تعلق كل الجرائم . إنه التخلف نفسه ! إنه العيب والعاهة ! إن الدولة الإسلامية ، وليست بعد إلا حديثاً باستثناء إيران ، هى الخطر الذى يهدد البشرية . إنها تجهل حقوق الإنسان لأنها لا تنبع من الإنسان . بل تسقط عليه من أعلى ومن خارج . وما لم ينبع من الإنسان لا يمكن إلا أن يكون نظاماً بدائياً وحشياً . الإسلام هو النموذج المكتمل « للاستبداد الشرقى » المعروف فى علم السياسة بخصائص الفظاظة والخشونة والهيمنة الفردية المتقلبة المزاجية الدموية.

الثورة الثقافية

الخطر العلماني الذي ينبغي لأهل الإيمان أن يترقبوه ويحترسوا منه أشد الاحتراس ليس العلمانية الكاشفة عن أنيابها المهددة الثالبة ، لكنه العلمانية الرقطاء المتسربة إلى المسلمين وهي لابسـة ثوبى زور . إنها علمانية « جغرافية الكلام » المستقبلية التراثية المجددة . تلك التى تمجد الإسلام وتنتقد الماركسية والإمبريالية وتتلف للمخزون النفسى الجماهيرى.

أما علمانية الذين لا يزالون يغطون فشل التجارب العلمانية بالزعم على الإسلام ، والدعوة المتجددة إلى ثورة ثقافية علمانية تغير المجتمع وتقضى على « الإيديولوجية السائدة » فما هم إلا طلبة لما تنفتح أدمغتهم المكدودة لإدراك ما يجرى فى الواقع . من عادة المثقفين أن ينتظروا زماناً حتى ينعكس الواقع على أدمغة قادة العالم ، ويتحول الانعكاس إشارات مترددة على وتيرة الخطر الدائم ، ليتلقفوا المعرفة من أفواه الرجال وأقلام الأعلام ، لا يستطيعون أن يقرأوا الواقع حيا .

إننا لا نستهيـن ، ولا ينبغي أن نستهيـن ، بالثورة الثقافية العلمانية القائمة أسواقها فى مجتمعاتنا ، الرائجة عملتها ، المرتكرة دكاكينها ومحطات بثها فى كل مرفق من مرافق الحياة ، خاصة فى المرافق التربوية . العلمانية متمكنة فى الأرض الثقافية . لها القيادة فى الكليات ومراكز التوجيه . فشلت العلمانية فى مظهرها السياسى ، فى وظيفتها السياسية ، لكنها لا تزال متربعة على كراسى الإدارة والإنتاج الفكرى ، لا ينقص من خطرها على الإسلام ببطء فهمها للتحويلات نحو الإسلام الجهادى فى عموم دار الإسلام .

لم تجرؤ الأنظمة العلمانية إلا قليلا على إعلان نفسها على حقيقتها . فى الدساتير تجد فى مقدمة البنود أن الدولة دينها الإسلام . ويترجم هذا فى ممارسة الحكم إلى تنازلات جزئية ، فى « الأحوال الشخصية مثلا » فى الزواج والطلاق والوقف . والأنظمة العلمانية رجعية كانت أو لبرالية أو قومية اشتراكية ، مستعدة الآن أكثر من أى وقت مضى للتنازلات الجزئية لتؤجل الأمر المحتوم . فى مصر تشتد المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية

فيصوت الحزب الرسمى ليعرقل هذا الاتجاه . فى باكستان والسودان وغيرهما ترى الحكام يستبقون لتبنى إسلام على هواهم يموهون به . أحيانا ، كما وقع فى سوريا ، فى حماة الشهيدة ، يبلغ سعار القوميين أوجه فيغرقون البلاد فى الدم المسفوك . الأنظمة الحاكمة تقرأ الواقع مباشرة ، فهى تدرك قوة الصحوة الإسلامية ، فتعترف بالواقع إما مجاملة وإما محتالة وإما متبينة وإما فاتكة . الصراع على هذا المستوى مباشر ومن قريب .

أما المثقفون العلمانيون ، أصحاب القراءة البطيئة الموسوعة ، فلهم السعة ليدبروا استراتيجية المدى المتوسط والبعيد ، ولهم الوسائل ، ولهم الإرادة . لا تنتظر أبدا أن يخلو الميدان يوما هكذا كما يستسلم حبيس أثخنه الجراح . استراتيجيةهم الهيمنة الثقافية ، والتسرب إلى الأماكن الحيوية فى حياة الأمة . ولئن كان اتصالهم بالشعب منعذما ، وكلمتهم عنده مرفوضة ، وحيلتهم للتقرب إليه كسيحة ، فإن لديهم وسائل الاتصال والإقناع الفكرى ليؤثروا فى طلبة الجامعات ، ويبلغوا صوتهم عبر الكتب والمجلات والندوات واللقاءات والرحلات لجمهور الشباب المتعلم العاقل . والفن ميدان لهم خصب ، يتزاج فيه الإغراء الفكرى بالإغراءات الأخرى التى يتقنون اقتناصها وتدريبها.

هدف أساسى لدى العلمانيين عليه مدار الثورة الثقافية الدائرة رحاها ، هو أن يمحو من خاطر كل شاب مسلم السؤال الفطرى الذى ركزته التربية الموروثة : سؤال : ماذا يقول الدين فى هذا ؟ يريدون أن يطمسوا معالم الفطرة التى تسند مثل هذا السؤال ، يريدون أن يذلوا العقبة الدينية . قال الدكتور النويهي : « إذا كنا جادين فى سعينا نحو « ثورة ثقافية شاملة » وجب علينا أن نبدأ بمواجهة هذه الحقيقة : إن العقبة الأولى فى هذا السبيل هى العقبة الدينية ، وإننا لن نصل إذن إلى الثورة المنشودة إلا إذا ذللنا هذه العقبة وأزحناها عن طريقنا » (28) .

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ ﴾ (29) . فما علمنا الله تبارك وتعالى فى كتابه ، ما كلفنا أمراً ونهياً ، ما وجهنا فى تدبير أنفسنا وأموالنا ومجتمعنا ،

(28) المصدر السابق ، ص : 95 .

(29) الإسراء : 9 .

هو التعليم الأقوم ، والتكليف الأرشد ، والتوجيه الأسلم ، والتدبير الكفيل بالنتائج الأحسن . العلمانيون يغيظهم أشد الغيظ أن يسمعوا عن رشاد خارج عن الموقف المصلحي المادى الدنيوى .

يغيظهم أن يسمعوا أن الأمر واحد فى التعليم القرآنى والتكليف الإلهى . الدنيا تمهيد للآخرة فى امتداد واحد . العقيدة والعبادات وتدبير المقومات الدنيوية شىء واحد . السياسة فرع متصل مباشرة بالعقيدة ، لاقتصاد له ثوابت وحدود وأخلاقيات هى دين . الإسلام رسالة عالمية لا يمكن أن تنحصر فى العرق واللغة .

· ماذا يكون هؤلاء المغتاضون من قوة عددية وسط الألف مليون ونيف من المسلمين ؟ ماذا يمثل الجهد الذى يستطيعون تعبئته بل المعبأ فعلا ، النشيط فعلا ؟

لا يفيد فى الموضوع أن نستقل عددهم ما دامت النوعية العقلانية والمكانة الاجتماعية تضاعف إمكانات التأثير . لا يفيد أن نترك جهودهم لتآكل بالتكرار حتى تمل . لا يفيد أن ننتظر من عوامل الخلافات القومية والمذهبية والمصلحية أن تمزق ما يشبه الشمل . لا يفيد أن نرفض الحوار مع من يطلب الحوار ، ولا أن نستعلى بالإيمان عن الجلوس إلى مناقشة ، ولا أن نغتر بالحق الذى ندعو إليه إن عجزنا عن تبليغ كلمة الحق ، والبرهنة عليها ، ومصابرة المجادل ، ومطاولته ، ومجاولته . لا يفيد أن نلوى أعناقنا أو نتناسى وجوداً مكثفا لطائفة تتفاوت علاقتها بالإسلام من العداء السافر ، إلى التوتر الشديد ، إلى الفضول المكبوت للمعرفة ، إلى التضاد الحزبى ، إلى الاستهتار والاستخفاف ، إلى التعالى بالثقافة الموسوعية والاطلاع « المحقق » .

ثم أن من بينهم رجالا يعلنون إيمانهم بالله ورسوله ، هؤلاء أهل لكل تقدير ، فكم من الوقت يمضى قبل أن يدركوا غرابة عنوانهم : « علمانيون إسلاميون » وتناقضه .

منذ قرن من الزمان تقريبا والعلمانيون ينطحون صخرة الإسلام . كان رنان وهانوتو ولورد كرومر يزعمون أن الإسلام مناق للمدنية ، مناقض للتقدم . فانبهرى الإصلاحيون محمد عبده والأفغانى وغيرهما رحمهم الله ليدافعوا عن الإسلام ويهاجموا أعداء الإسلام . وكان مدار الدفاع والهجوم حول ما إذا كان الإسلام مناقضا للمدنية أو لا . لم

يطرح الإصلاحيون قبل تلك المعارك هذا السؤال البسيط الضروري الحيوى مع ذلك :
« ماذا تعنون بالمدنية والتقدم ؟ » ولأنهم لم يطرحوا هذا السؤال فقد انبروا يقاتلون على
أرضية رتبها غيرهم ، ومن وجهة نظر لم ينكشف لها الوجه الحقيقى للخصم .

أمام الإسلاميين اليوم . ولمدة طويلة ، عقول صيغت فى تلك المدرسة المادية العقلانية
التي كان رنان المؤرخ الفيلسوف وكرومر المستعمر الحاكم سلفها . فالمدنية والتقدم ، وكل
الإطار القيمى الغربى ، مسلمات مفروغ منها .

بجهودنا المتواضعة مع الواقع ، الدؤوبة الصابرة الموقفة إن شاء الله ، نفهم بالحوار ،
ونمثل بالسلوك ، أن التقدم والمدنية وكل المطالب الإنسانية الشريفة ، ما هيأت بلا معنى .
ومادة بلا روح ، ما دامت لا تعطى للإنسان جواباً عن وجوده ، عن حياته ومماته . عن سر
تقلبه فى هذا الكون بين الطبيعة السائرة به ومنتجات فكرة السائر بها .

نفهم ونمثل بالسلوك أننا لا نعتبر الغرب ولا الشرق الجاهليين شيطانين ملعونين ، لكن
نعيد طرح السؤال والنقد . كل مسلمة علمية وكل مبدإ علمى ، وكل ترتيب ، وكل
مكتسبات العقل البشرى والجهد البشرى هي مكتسباتنا ، هي حق إنسانى ليس لأحد أن
يضيمنافيه .

الأصالة والحدائثة وكل هذه المفاهيم الرائجة المائجة أفكار مهزوزة تتراقص فى
مخيلات متعبة . اسأل أيها المؤمن كتاب ربك عن التي هي أقوم ، واسأل سنة نبيك ﷺ عن
المنهاج العملى إلى بلوغها . اسأل عن التعليم الإلهى ، والتكليف ، والتوجيه ، وعن
النموذج النبوى ، فإذا معك معيار الحق . وعلى الله قصد السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلى العظيم .

★ ★ ★

الفصل الرابع

القومية

الإيديولوجيا القومية

أول ما يتعرف به الإنسان إلى نفسه وإلى من حوله انتماءه إلى أسرته . ثم تتوسع دائرة التعرف والانتماء مع نمو الفرد ونمو الجماعة فتتفرد الجماعة عن الجماعات الأخرى ، وتتخصص وتحدد هويتها بالنسبة لغيرها في إطار العشيرة والقبيلة ، وداخل النسيج العرقي اللغوي الأمنى الذى يشعر كل فرد من أفراد الجماعة فيه أنه جزء من كيانه .

كل جماعة تحتاج لهذا التفرد وتشتد حاجتها إليه في أيام الأزمات والشك والخطر المهدد من خارج ، ويتوسع الانتماء القبلى العرقي فيحتضن أقواما يتكاثرون ويتوحدون على خصائص أعلى من خصائص الدم والنسب ، كاللغة والوطن ، فتفتت المعالم القبلية ويتشكل على مر الزمن كيان قومى كلى إليه يكون الانتماء .

القومية كلمة جديدة على المجتمعات المسلمة ، ولدت ونشأ مدلولها العصرى فى أوربا . فى إطار القومية استيقظت حقوق تلك الشعوب ، وتبلورت طموحاتها ، وتشكلت قواها العسكرية ونظامها الدولى منذ قرنين . جاءنا مفهوم الوطنية ، فهمت الشعوب المسلمة معناه بعد أن احتلت الأرض فوجب الدفاع عنها محليا ، بالقوى المحلية ، فى غياب الدولة الإسلامية . وجاءتنا بعد ذلك القومية ، وكأن الاستعمار أيقظ فينا بعدائه وعدوانه ذلك القاع الذى كان يغطيه الكيان المعنوى الأعلى وهو الإسلام . استيقظت فينا فى وجه العدوان الاستعماري والعداوة الأوربية والعصبية القومية البرتغالية والانجليزية والفرنسية والإيطالية عصبية عربية أو هندية أو سنديّة .

عند الصدمة الاستعمارية الأولى قاوم المسلمون من موقع مسلم ، فلما انهزمنا ، وتداخل المثقفون مع الفكر الوارد ، وتعرفوا التاريخ الأوام الغالبيين ، نظمت النخبة المتعلمة المقاومة على أسس وطنية قومية . الوطنية تعنى فى حق قوم مستعمرين جمع الشمل داخل رقعة جغرافية ، والقومية تعنى توحيد القوى فى دائرة أضيق من الوحدة المفقودة ، وأدنى منها أخلاقيا وسياسيا وإسلاميا .

إذا كانت القومية فى منشئها صعودا من الانتماء الجزئى العرقي وغيره إلى مستوى أرفع ، فإنها فينا نزول تفتتى من الوحدة الإسلامية المفقودة ، يصاحبه هبوط فى الوعي ،

وتقلص فى الوجود ، وضمور فى الشخصية السياسية .

ها نحن إذن عرضة للدعوة القومية ، ومجال لثقافتها ، وحقل تجربة لسياستها . تعلمت القومية الآن ، فلا تكاد تجد قوميا لا يعتقد المذهب العلماني حتى ولو كان فى شخصه وبإخلاص متدينا . والتحمت الماركسية العربية مع القومية بعد طول جفاء على كلمة سواء بينهم هى الاشتراكية . وتوجهت العاطفة القومية الحادة . وفى ركابها الاشتراكية (ولا اشتراكية إلا « علمية ») وعلى عينيها المنظار العلماني المميز نحو هدف الوحدة . هذه الأربعة لا تفترق فى هم السياسى ، وخطاب المثقف ، وشعار المناضل : قومية ، علمانية ، اشتراكية ، وحدة . وتبقى الأهداف العملية ، مثل المسألة الاجتماعية ، والتنمية ، والتقدم ، ضمنية يرجو القوميون أن يحققوها بعد الوحدة ، ويرجو الماركسيون أن يستعينوا عليها بالحلف الواحدى ، ويرجو العلمانيون أن لا يتعارض تحقيقها مع هدف الوحدة فيفقدوا ركيزة وجودهم وهو أمل الوحدة .

هذه الأربعة مفاهيم لا يمكن فى الوقت الحاضر أن نفصل بعضها عن بعض فى الحديث ، لأنها فى الواقع السياسى الثقافى النضالى متلاحمة . فمجموعها تتميز أمام الحركة الإسلامية فى الداخل ، وأمام العالم الخارجى ، كتل منظمة فى الحكم أو فى المعارضة ، قطرية أو قومية . وليس أول تناقض فى القومية أن تكون قطرية ، ولا آخره أن يتزعم النصارى العلمانيون بالأمس ، مؤسسو القومية ، الدعوة الطائفية والحروب الطائفية .

★ ★ ★

ميلاد القومية العربية

منذ صعود القومية الطورانية في تركيا على عهد « الخلافة » العثمانية ، تبدل الوضع الإسلامي ، وتضربت الانتماءات ، وحارت الهوية . تحت مظلة الدولة العثمانية كان الناس رعية ، ثم بعد ذلك تذكر الخصيصة الاستثنائية : يهود ، نصارى ، أو العرقية : عجم ، عرب ، كرد ، بربر . بعد سقوط الدولة التي كانت شوكة الإسلام ورمزه وركيزة هوية المسلمين التمسست طوائف المثقفين وضوحاً في مطالبات « خلافة عربية » ، أو وطنية قبطية ، أو نهضة فينيقية ، أو حضارة سورية ، أو مجد عربي بغدادى ، ولاحقاً في هوية بربرية .

كان هبوط الواقع والوعى من الدولة الموحدة الكبيرة إلى التشتت القومى نتيجة هزيمة ، وخيبة أمل . ظهرت النزعة القومية الطورانية في تركيا منذ أكثر من قرن من الزمان ، باتصال المثقفين الأتراك بألمانيا اتصالاً وثيقاً . وكانت ألمانيا إذ ذاك فى أوج قوميتها التى تعوض بصرامتها وصخبها وانفعالها تخلفها العلمى والصناعى عن أوربا يومئذ . ظن أعضاء جمعيتى « تركيا الفتاة » ثم « الاتحاد والترقى » ، وقادتها يهود الدونما ، أن لا سبيل إلى القضاء على الدولة المريضة المكروهة من كل جانب لأسباب مختلفة ، عدوة اليهود وعدوة وأروبا ، إلا بإسقاط النظام العثمانى بوسائل العصر ، ومنها القومية . لما وصل أولئك القوميون العلمانيون ، الكفار باصطلاحنا ، إلى الحكم بعد سنة 1907 ، ساموا العرب أشد العذاب . وذلك ما أيقظ القومية العربية والعصبية العربية . رد فعل غنى فى حفلة ميلاده النصارى العرب نشيد النصر ، ووقعوا ببصمات الولاء غير المشروط على وثيقة تجسده كائناً حياً إيجابياً يسعى ويدافع عن نفسه بطش القوميين الترك . فى سنة 1916 مثلاً قتل جمال المعروف بالجزار شنقا صفوة المثقفين السوريين .

لا نريد أن نبرئ ساحة الحكام الأتراك التقليديين فقد كان منهم الصالح والطالح ، وكان نظامهم نظاماً وراثياً مهترئاً . لكن القوميين الأتراك ، هم كانوا خصم الإسلام أساساً : حاصروا السلطان عبد الحميد رحمه الله ، وكرهوه ، وكادوا له ، لأنه حاول ترميم الوحدة الإسلامية ، وامتنع عن بيع فلسطين لليهود ، ونظم دعوة إسلامية مضادة للدعوة العلمانية التركية . فهو رحمه الله كان أعلى منهم وعياً ، وأسمى مطمحاً ، لولا أنه

كان يمثل نظاماً آن قطافه ، وكانوا يمثلون تنظيمًا شاباً تغذيه أوروبا العلمانية ، ويغذيه اليهود والملحدون ، ياديولوجية قومية لبرالية ، بها يمكن الإجهاز على « الرجل المريض » . هزيمة الوحدة الإسلامية تترادف مع هزيمة الدولة العثمانية . وكانت هزيمة ممتدة في الزمان قرابة قرنين ، آخر فصل فيها انقضاض مصطفى كمال حامل لواء الملاحدة .

وقبيل هذا الانقضاض ، بعد أن استغلت الدولة الاستعمارية طموح العرب القومى وضربت بهم فى حربها ضد الدولة المائنة ، أصيب العرب فى ثقتهم ، وخاب أملهم فى الوعود التى كانت تمنىهم بخلافة عربية تجمع العرب حول عرش شريف مكة .

القومية العربية فى ميلادها كانت تطلب بديلا بالخلافة العثمانية . كانت تطلب نظاما شبيها بالنظام العثمانى ، مسلما ، على رأسه شريف محترم ، من العترة النبوية ، من أقدس بقعة فى الأرض مكة . كانت إسلاما قوميا ، عروبة لا تتنكر لدينها . فجاءت خيبة الأمل لما خانت إنجلترا وفرنسا وعدهما ، و« بلقنتا » بلاد الهلال الخصيب بمعاهدة سايكس - بيكو . وبعد خيبة الأمل الهزيمة النهائية لمعنى الخلافة واسمها ورسمها . فمن هذا المركب المرضى ، خيبة الأمل والهزيمة التاريخية ، غشيت أجواء العرب والمسلمين غيوم نكراء ، وتبدلت فى عين المؤمنين من ذلك الأرض غير الأرض ، واستحال الوضع ، وانغلقت الهوية ، وتوقح الكفر ، وادلهمت الخطوب .

طبق المسلمون ، المؤمنون حقا لا المسلمون الجغرافيون ، يجرون وراء إحياء الدولة الإسلامية بعد الخسف الذى شعروا به عند تقويض الدولة الرمز . لم يصدقوا الحدث المهول ، حتى إن طوائف شعبية فى آسيا ظنت أن الساعة قامت . هذا الحس المخضرم مات الآن . وولد حس إسلامى جديد . يريد الدولة الإسلامية أسوة بالدولة النبوية لا بديلا عن نظام ضاع لم تحضره هذه الأجيال ولا تمزقت بسقوطه . والصراع الرئيسى فى هذه المطالبة ، بل فى هذا الطلاب المشتد بحول الله تعالى ، هو الصراع الداخلى بين القومية العلمانية الاشتراكية وبين الإسلام . كل تلفيق باسم الإسلام لن يصمد أمام القومية ، وإن العواطف المخلصة التى صاحبت نشوء دولة باكستان على أمل إسلامياتها ذهبت سدى لانعدام الوعى الإسلامى والقيادة المتحيزة لله عز وجل عندما هبت رياح القومية فجرفت البنغالى القومى عن قوميات أخرى بنجابية وسندية وبلوشية هى الآن بعد الانفصال المأساوى لبنغلاديش فى طور صراع تمزقى مستمر . ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الانتساب لله عز وجل

القومية انتساب طبيعي إلى أصل المولد والنشأة . فى سؤال : من هو ؟ من أنت ؟ ممن القوم ؟ ليس أكثر طبيعة من نشر الإنسان هويته بالانتساب لقومه وموطنه ، فى هذه الحدود لا يزاحم الانتساب القومى التسامى الإنسانى والاكتمال العاطفى للإنسان ولا يناقضهما ، كما لا يزاحمهما الانتساب للأسرة ولا يناقضهما ، ما لم يكن التعصب والحمية الجاهلية . والإسلام لا يخاصم بأى وجه ما هو من أصل الخلقة وما هو من مقومات وجود البشر ، بل يوجه عاطفة الانتساب للأسرة والقوم ، ويقويها ، لتصلح قاعدة للانطلاق للخير . قال الله عز وجل يخاطب الناس ، دون اعتبار إيمان أو غيره : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير ﴾ (1) .

الآية الكريمة تُدرج النشأة الإنسانية على مدارج رشدّها : من الذكر والأنثى يخلق الله سبحانه الكائن البشرى . إنه حضن الأسرة ، حنان الأمومة وعطف الأبوة والغذاء والأمن والتربية . ثم هو الحضن الأوسع الاجتماعى الضرورى : الشعب والقبيلة والقوم . هذا وضع فطرى ، يبقى فطريا إن ارتقى بالإنسان إلى نضج التعارف والتعاون ، ثم إلى كرامة الانتساب لله عز وجل باكتساب التقوى والعمل الصالح .

أما إن انتكست المسيرة ، وتكبرت الأسرة على الأسر ، والقبيلة على القبائل ، والقومية على القوميات ، والشعب على الشعوب ، واستبدل بالتعارف التشاحن ، وبالدخول فى السلم الدخول فى حرب العصبية ، ولم يتمكن الإنسان فى هذا الواقع المنتكس من اقتحام العقبة إلى اقتسام الكرامة الإنسانية مع بنى الإنسان ، وإلى التميز بالأكرمية مع المتقين والأتقين ، فإن ذلك فساد للفطرة ، وتكون الأسرة والشعب والقومية عشا موبوءا تتوالد فيه مبيدات الإنسانية ، وقاتلات المروءة والتناكر والعدوان ، والعداء فى ذات الطباغوت الأسرى القومى .

(1) الحجرات : 13 .

جاء فى الأثر أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : يا بنى آدم، جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً ، فقلتم فلان بن فلان . وقلت : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم » . ابن آدم ملتصق بالأرض وبحقائق النشأة الأرضية ، فهو فلان ، لا فكاك عن تسلسله البيولوجى وما يحمل من مخزومات الأجيال الوراثية ، وما تجمع فيه من خصائص الجسم والذكاء والاستعداد . الله عز وجل فطره على هذا ، يد الله عز وجل صنعت وخلقت ، الله عز وجل جعل هذا . لا تعنى نسبة الجعل لبنى آدم فى الحديث أن لابن آدم أى اختيار فى خروجه من صلب أبيه فلان ورحم أمه فلانة . لكنه إن وقف عند جسمانيته ، وحجبه النسب إلى أبويه وقوميته عن مخلوقيته ، وعن غائبة خلقه الذى ينسبه إلى ربه تبارك وتعالى بالعبودية والطاعة ، والإحسان فى العمل ، والتطلع الإحسانى إلى معرفة ربه ونيل الكرامة عنده ، ونيل الأكرمية والكمال ، فجعله هذا وتوقفه وانحجابه تردُّ عن العقبة ، وإخلال بالوظيفة السامية للإنسان ، وإفساد فى الأرض .

★ ★ ★

العالمية والقومية

كان تنوع القوميات فى تاريخ الإسلام بعد فترة النبوة والخلافة الراشدة ، وتنافسها على السلطة منذ التكتل الأموى القبلى الذى حزب إلى جانب البلاط يمنية الشام ليشتد به أزر أسرة مستكبرة ، مظهرها لهذا الانتساب المتكسب .

حارب رسول الله ﷺ العصبية القبلية بكل مظاهرها دون أن يتنكر للانتساب الفطرى . كانت تدخل القبائل فى الإسلام فيؤمر عليه الصلاة والسلام عليها أميراً منها ولا يمس تركيبتها . المنتظر أن يدخل التركيب القبلى جملة فى الإسلام ، وأن تتخلله روح الأخوة فى الله ، أخوة انتساب كل مسلم إلى الله عز وجل بالتقوى والعمل الصالح ، فترفع القبيلة كلها من حضيض العصبية التى كانت سدى السياسة الجاهلية ولحمة اقتصادها ، ومحور حربها وسلمها ، إلى آفاق عالمية أخوة الأمة ، وتضامن الأمة ، وهما دعوة معروضة مفتوحة على بنى آدم كافة ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

فى السنة الثامنة من الهجرة ، عند فتح مكة ، دخل جيش النبى ﷺ أم القرى معبأ قبيلة قبيلة ، ومع كل قبيلة لواؤها ، وعلى رأسها قائدها . وهو ﷺ فى مقام عرض قوة الإسلام العالمى ، لا قوة القبائل القومية ، لم ير ﷺ بأساً من تصنيف جيش الإسلام تصنيفاً قومياً ، إجرائية عملية ، وحفاظاً على تكتل واقعى يراد له أن يرتفع جملة إلى عالمية الانتماء الإسلامى ، وتخويفاً لعدو لا يزال يفكر على مستوى بأس القبيلة ، ووحدة القبيلة . كانت فى ذلك العرض التاريخى العظيم الكتيبة الخضراء وحدها ، وهى الأكثر سلاحاً وبأساً ، والأعظم إيماناً ، تخرق حواجز القبيلة . كانت تجمع المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم .

هل زال الشعور القبلى بعد وفاة رسول الله ﷺ ؟ هل ماتت العصبية الجاهلية ؟ هل اكتملت التربية ؟ أسئلة سكونية تقدر أن العصبية والشعور القومى والتربية أشياء وأحداث تقع أو لا تقع . ليست هذه المعانى ماهيات تلصق بالإنسان ، ولا هى مكتسبات يستولى عليها الطالب فهى له ملك . الشعور القبلى والتعصب القومى غرائز مركبة فى الإنسان

والجماعة ، هما من العناصر العقبة منظوراً إليها في انحدارها . والتربية التي تقاتل هذه الغرائز المرضية جهد يجب أن يبذل على كل الجبهات الحيوية ، فالكينونة من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة هدف دائم يتحدى إرادة المؤمن ، ليرتفع إلى الله ، ليقترحم إليه العقبة ، مغالباً التيار الهابط الذي يرده إلى نسبته السفلى .

في عز المجتمع المدني إثر وفاة رسول الله ﷺ كان حوار في السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، فنبضت نبضة بشرية لما قال قائل : منا أمير ومنكم أمير . في تلك اللحظات الفاجعة ، والقلوب منكسرة لفراق أحب الناس وأظهر الناس وأسمى الناس ، لم تغب النسبة الأرضية ، بل نطق بها اللسان ، واقتрحت في الميزان .

لكن ما لبثت هذه النزعة أن ذهبت ، وما لبث الذين آمنوا وتواصوا بالصبر عدداً وعُدّة وسلاحاً ، وتواصوا بالرحمة في الله رحماً ونسباً ، أن قاموا يذوبون عن عالمية الإسلام لما ارتدت قبائل الأعراب المنتكسة في انتسابها القومي . منعت هذه القبائل الزكاة أن تؤدي للأمة . يعني هذا أن العامل الاقتصادي كان الاعتبار الحاسم الذي أيقظ العصبية وسلحها . تضامن قبلي متقلص في وجه إرادة عالمية محررة .

بعد استواء الملك العاض على الحكم أصبح التضامن المتقلص في القمة والدعوة الإسلامية العالمية تركد في المجتمع الساكت تحت الوطأة . أو تقوم مطالبة ، أو يثور تضامن منافس ، أو حلف أقوام . هذه هي الوتيرة التي فصلت تاريخ المسلمين الداخلي .

ما هو التركيب الاجتماعي الأمثل المطابق للإسلام ؟ أما النموذج العملي المعياري فهو المجتمع الذي بناه رسول الله ﷺ . ليس نموذجاً بنخيله وحيطانه ، وبساطة عيشه ، وفروسية رجاله ، وجمال سفره ، وسيوف جهاده ، كما يحلو لبعض الفاكهين أن يضحكوا ممن يتأمل ذلك النموذج الخالد . الخالد بالتربية التي رفعت من حضيض النسبة الأرضية إلى أوج الانتساب لله تعالى ، الخالد بالاقترحام الإيمان الذي وصله بمصادر القوة الإيمانية ، وأوصله إلى أوج الانتساب لله تعالى ، وأوصله إلى الاعتزاز بالله عز وجل بدل الاعتزاز بالآباء والأجداد . الخالد بالدروس الإنسانية ، والسياسية ، والجهادية ، التي أثلها لنا لتعلم من آيات الله فيها وفي الكون والتاريخ البشري عامة حدود الإنسان في فرديته ، وحركيته في انتمائه ، واستيلاء النخوة القومية عليه ، وما يصعد هذه النخوة حتى تصبح

دافعاً سامياً ، أو يمكنها فى النفوس فتستحيل نعمة مدمرة .

إن من ينظر إلى المستقبل ويفكر للمستقبل ، والمستقبل بيد الله عز وجل تؤدى إليه جهودنا ونحن مسؤولون عن نتائجها ، يمثل أمامه مشهذان تاريخيان : العرب أول عهد الإسلام ، والعرب اليوم . على أى مجتمع دخل الإسلام ، بل فى أى مجتمع برز ؟ معرفة ذلك التفاعل الأول علم ضرورى لتنهيج الحاضر والمستقبل .

دون الحنين إلى خيال العروبة فى مهدها ، وفى وارف بساتينها الثقافية ، واقع دموى جاهلى تحكمه العصبية ، ويحركه الحقد ، وينتج عنه الفوضى ، وتهدر فيه الحرم ، ويستعبد فيه الإنسان . الروح الجاهلية كانت حقيقة شوهاء زينتها فى خيال القوميين العاطفيين المقتنصين للهوية الضائعة لغة مجيدة ، وشعر يرفع للعلا مكارم الأخلاق ، والفروسية ، والشجاعة ، والكرم . الروح الجاهلية لم تمت . وهى تلبس فى لبنان التمزق ، لبنان القناصة والأحقاد والعشائر والخيانات ، لباساً عصرياً ، وتركب سيارات ، وتفتك بالرشاش والدبابة بدل الرمح والسيف . أى كرم ، وأية شجاعة ، وأية فروسية لا تزال تكمن فى العرب الطائفيين القوميين بلبنان التناقضات ، وفى عرب القومية الاشتراكية الوجودية ؟ بل أية بلاغة عربية تحمل إلى تلك الآذان ، إلى ذلك الوعي الذى أودى به الانفعال وتاهت به الأحلام ، رسالة العالمية ، رسالة التحرر ، رسالة اقتحام العقبة وفك الرقبة إن لم تكن بلاغة الإسلام ، ورسالة الإسلام ؟

★ ★ ★

حسن الصحبة

إن مما جُبِلَ عليه البشر أن يجدوا هويتهم فى البيئة الجغرافية التى فتحوا أعينهم عليها ، وفى الإلف الأسرى ، والشمل العشائرى ، أو القومية التى تقوم مقام العشيرة فى المجتمعات المتطورة التى اندمجت وتوارت منها المعالم القبلية . هذا الانتماء الجبلى العاطفى العام فى البشر قد يبقى عفويا ، وقد تلتقطه الحزبية السياسية ، فتستثمره وتوجهه وتستنتب منه عصبية خاصة طلائعية ، تحافظ على ماض ومجد ضاع ، أو تستأنف مطالبة لهدف مرجو ، رجعية أو تقدمية ، محافظة أو ثورية .

بالانتماء العفوى يتعرف الفرد إلى نفسه ، وتتعرف الجماعة إلى نفسها بالتقابل النسبى مع هوية أخرى ، مع نفس أخرى ، مع قوم آخرين . هذه أسرتى تميزنى عن الأسر ، هذا وطنى بين الأوطان ، هذه قوميتى . وبالانتماء الحزبى ، ذى التكتل المنظم ، والإيديولوجية إن كانت ، يتعرف الفرد على طموحه المستقبلى ، وعلى ماضى منجده ، ويتعرف الحزب على ساحة الصراع وما فيها من أضداد . كل ذلك لا يرفع قيمة الانسان وقيمة المجتمع ، عفويا كان أو منظما موجهها ، أعلى من النسبية بين البشر فى التنافس الاقتصادى والسياسى ، والوجاهة الاجتماعية والرئاسة والسلطة ، وأقصى ما يُبلّغه هذا الانتماء الطموح إلى الهيمنة على مصير البشرية ، والاستعلاء على الجميع . ألمانيا فوق الجميع ، هذا كان شعار القومية النازية .

نحن مستقبلاً بحول الله بصدد إعادة تنظيم الجماعة نواة الأمة ، وإعادة تركيب المجتمع المسلم على قواعد الولاية الجهادية والولاية الإيمانية ، والنسبة لله عز وجل . نحن إن شاء الله بصدد إعادة النظم الفتيت لعقد الأمة ، ومعنا النموذج الأول ، ومعنا كتاب الله عز وجل ، وأمامنا القومية الناشئة لا تزال ، والناشئ أصلب عوداً من الشائخ . أمامنا النداء القومى المتأجج عاطفة وحماساً ، حوله يلتم القومى القومى ، والقومى الماركسى ، والماركسى القومى . والرهان بيننا جبلية الانتماء ، والشراكة فى نفس الماضى العربى فيما يخص القومية العربية ، ذلك الماضى المتألق الذى ننتمى إليه وينتمون ، كل من وجهته .

وحسب تفسيره . والإشكالية التي تنتظر الجواب والحل هي : كيف تجلب جماهير الأمة المختلفة القوميات ، العرقية منها والمنظرة المنظمة ، من أحضان الانتماءات النسبية ، ليسمعوا نداء الإسلام ، ويرتفعوا إلى الانتماء المطلق الذي تدل عليه كلمة : « مسلم » ؟

لقب « مسلم » يضعك مباشرة في مدار آخر غير مدار القومية . أنت مسلم لله . أسلمت له . تنتسب له بالعبودية ، وهذا لا يقتلحك طبعاً من الانتماءات الأخرى الجبلية والضرورية ، إنما يحركك من عبوديتها المعنوية ، ويملي إسلامك لله عليها حدودها ووظيفتها.

الجواب على الإشكالية نلتمسه في التربية . لا يطرح في التحزبات السياسية أى مشكل أخلاقي تربوي عقدي كما يطرح في التحزب لله عز وجل . الناس هناك تقتنع بفكر ، وتتعهد بانضباط ثوري مهدد ، ثم الممارسة وجدليتها .

في التجميع الإسلامي لا تكفى العقيدة والنظرية ، لابد من تربية أهم أهدافها وأسبقه رفع همة المؤمن من النسبي إلى المطلق . والأرضية الاجتماعية في غالبية الجماهير طبقات متراكمة على مر التاريخ من عفويات ، وفي الطبقة المتعلمة ركام ثقافي فكري العنصر الغالب فيه الوطنية والقومية والأصالة والتحديث والتنمية .

تتضاعف الصعوبة أمامنا من كون التكتلات النسبية ذات الأهداف السياسية والطبقية المحدودة لها فاعلية وتأثير في الواقع ، فمن يصحبنا على درب الجهاد لا ينبغي أن تفصله النسبة لله عز وجل المترتبة على التقوى والعمل الصالح عن واجبات الفاعلية والتأثير والصراع اليومي الدائم . وإلا انحذفت الحركة الإسلامية في الأجواء العليا ، وفقدت مواقع أقدام على الأرض . كيف الجمع ؟ كيف يكون إسلامنا لله رافعاً معنوياً ومؤثراً عملياً معاً ؟

شبيه موقفنا بموقف البعثة النبوية من كون المجتمع المراد تغييره أرضي الانتماء في الجملة . عبارة « في الجملة » هذه تستثنى شرائح اجتماعية واسعة هي على إسلامها الموروث الفردي غير المؤثر ، وعبارة « أرضي الانتماء » نتحاشى بها استعمال كلمة « جاهلي الانتماء » لما في إطلاق اسم الجاهلية على المسلمين ، ولو كان الفسق سائداً

والردة فاشية والحكم جاهليا ، من فتح خطير لذرائع الفتنة .

لهذا الشبه ، ولوحدة الهدف ، لا يصلح أمر التجديد الإسلامى إلا بما صلح به أمر التأسيس الإسلامى . وحسن الصحبة مفتاح الموقف اليوم وغدا كما كان فى العهد الأول . حسن الصحبة يعنى حسن التربية ، يعنى أولويتها ، يعنى أخذ الفرد بالإحسان ، واكتنافه بالصحبة ، ورفع مع الجماعة ، وصونه فى محضنها ، وإشراكه فى حيويتها الإيمانية ، وأخذه عاطفيا وعمليا ، وقلبيا وعقليا . فى السفر الجماعى من أرضية الانتماء إلى سماويته ، من قطرية القومية ومحليتها إلى عالمية الإسلام .

إن القومية ، عربية أو عجمية ، رباط جديد مصطنع مستورد فى بلاد المسلمين . إنه فى نظر قادة القومية العلمانيين بديل عن كل دين ، بديل عقلانى مصلحى أرضى انفعالى عنيف . تكتسب القومية خصائصها العقلانية المصلحية الأرضية من الإيديولوجية القومية المتبناة المستوردة ، وتكتسب العضلات والعنف من الانفعالية الموروثة ، ومن المواقف السياسية القومية التى سلحت أمس العربى ضد التركى ، والبنغالى ضد البنجابى ، وتسليح اليوم بشكل أفظع وألعن العربى ضد الإيراني .

أيكفى أن نرفع شعار الإسلام والسلام والأخوة وحسن الصحبة فى وجه المارد القومى الفاتك ؟ هل نجد فسحة السنوات الثلاث عشرة التى خصصها رسول الله ﷺ لتربية أصحابه الكرام لا يحملون طيلتها أعباء المقاومة والقتال ؟ هل تركنا تهويشات الصراع الداخلى والخارجى وتشويهاته لتتفرغ ريثما نعقد عهد حسن الصحبة ونربط العلاقات الإيمانية الإسلامية ؟

على محك الكيف العملى ، على معيار الممارسة ، توضع مبادئنا كلها ، ومنها حسن الصحبة فيما بين أعضاء الكيان الإسلامى الزاحف . لا يكتمل عملنا إلا إذا أحسننا أيضا ، وفى نفس الوقت ، وعلى مدى مراحل التغيير الإسلامى ، صحبة الدعوات المضادة والمنافسة ، المسالمة والمقاتلة . نقابل كلا منها بما يليق ، بما شرع الله عز وجل لا بما يستفزه من كوامن انفعالاتنا عنف الآخرين . ولسنا بمستطيعين اختيار الظروف التى نواجه فيها الواقع ونقتحم فيها العقبة ، ولا بقادرين على إيقاف عجلة الأحداث وتكليف سردها ، ولا

بنجاحين إن ظننا أن الكائن الإسلامى يفيد يوما ويؤثر إن بدأنا برعايته وتأليفه فى ظل الخفاء والأمن الكاذب الخطير فى أحضان السرية . كل كيان عضوى لا يصبر على شراسة الصراع سيفنى لرخاوته . كلمة حكمة ، لا علينا إن استغلها بالباطل أصحاب نظرية « النشوء والارتقاء » .

لنترك الآن ، إلى رجعات إن شاء الله ، شأن التربية وكيف تتزوج مع المقاومة . إن هذا التزوج من أهم ما يتوقف عليه الفوز بثمرات النصر فى الدنيا والكرامة فى الآخرة . ولذا ذكر العناصر الاجتماعية الإيمانية الأخلاقية التى يتألف من مجموعها النسيج الإنسانى لمحضن التربية ، والجو المعنوى الذى يستنشق فيه ، والعلاقات الرافعة إلى النسبة العليا منه .

كنتُ كُتبتُ فى « المنهاج النبوى » تصنيف شعب الإيمان البضع والسبعين فى فئات عشرة أولها وفاتحتها خصلة « الصلحة والجماعة » ، أى وجود المحضن التربوى الرافع ووظيفته . وأذكر بالأثر الذى ورد فيه قول الله تعالى : ﴿ فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم ﴾ ليفهم ما أقصد بعبارة « المحضن التربوى الرافع » .

على مدى إحدى عشرة مرحلة يتخلق المؤمن ويتقى ربه ويتكرم ويرتفع إلى النسب الأعلى . يكون حب الله ورسوله أول ما يلوح لبادرته عند لقاء حزب الله ، يرى ذلك سلوكا كاملا . إن كانت الجماعة كاملة . وهذا أفق يطمح إليه ، ولا كمال إلا لله عز وجل . ثم يتعلم عمليا محبة إخوانه فى الله سبحانه وتعالى ، يخرج تدريجيا من الانتماء الجبلي الأسرى إلى هذا الانتماء الأخوى . ثم يقرن هذه العاطفة الأخوية الوليدة بالصلحة العملية لأخوته ، بمعاشيتهم وإكرامهم ومشاركتهم . ثم يرتفع عاطفيا بواسطة محبة الإخوة وصحبتهم وعلى مثالهم إلى التعلق والتأسى بالنموذج الكامل رسول الله ﷺ ، والتخلق بأخلاقه العليا الجامعة بين عظم الأمور وبين الممارسة اليومية المتواضعة مثل حياة الأسرة . ثم يتعلم المؤمن الأهمية القصوى ويطبق واجب الإحسان للوالدين . وإنها لمن عويصات التربية عندما تتعارض واجبات المؤمن المنتحز لله سبحانه الحركية مع رغبات الوالدين . لا يريد الله عز وجل للمؤمن ، مهما كانت الظروف ، إلا الإحسان للوالدين والأقربين

بالمعروف . لا يريد أن نقطع الانتماء الجبلى ، بل نستبقيه ونبنى عليه ونأمل فيه الخير . ثم يستقر المؤمن فى حضن التربية فى بيته مع زوجه بآداب فوق آداب الألفة الجبلية ، نحافظ على تلك الألفة ونصعدها . ثم يتعلم المؤمن الإحسان إلى الجار ، والإحسان باب مفتوح . بل هو فتح ومفتاح للدعوة ولتوسيع دائرة الانتماء ، وجذب الأمة إلى النسبة العليا الأقرب فالأقرب . وإكرام الضيف الوارد عليك ، والذي ترد أنت عليه للدعوة وسيلة أخرى رافعة . ثم يكتسب المؤمن وسط الجماعة ، وتكتسب الجماعة بنشاط أفرادها ، الفضيلة الخلقية والسياسية بالقدرة على رعاية حقوق المسلمين والدفاع عنها ، وبإصلاح ما أفسدته ذات البين الاجتماعى وما أفسده الظلم السياسى . ومن هنا نرى أن التربية تدخل من الأبواب القاعدية لمجال الصراع ، ومجال الوقوف مع المستضعفين . وتتم الملامح الخلقية التأهيلية للتربية المجاهدة باكتساب المؤمن صفة البر وحسن الخلق ، وهى جماع الخير ، ومعقد الفاعلية الجهادية ، والوجه الباسم المحب الجذاب للدعوة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

★ ★ ★

النسبة الجاهلية

شعار الثورة يعنى أول ما يعنى الإفصاح عن نية إحداث تغيير اجتماعى يحقق العدل والمساواة ، يحارب الطبقة ، ويزيل ركائزها الاجتماعية لتتقوض قواعدها إلى الأبد. العقيدة الشيوعية تؤكد هذا وتبشر به . كما تؤكد أن كل الثورات التى سبقتها أدت بدون استثناء إلى إحلال استبداد مكان استبداد ، وأدت إلى تحسين جهاز القمع الموروث ، وهو جهاز الدولة . وزعم أساطين هذه العقيدة أن استبداد الطبقة العاملة ، (دكتاتورية البرولتاريا) ستحرر البشرية (إلى الأبد) من الطغيان ، وتضمحل الدولة جهاز القمع ، ويتآخى الناس . فما مضت الليالي والأيام حتى غلبت الطبقة العاملة فى روسيا ، واستبدت ، وطغت ، وطلورت أجهزة القمع أعظم مما كانت ، وأشد مما كانت فتكا . كانت تعد بأخوة البشر تحت ظلال العدل الشيوعى ، ومغيب القوميات . . فما دارت الأيام دورتها حتى فندت أعمال ستالين أقوال سلفه حين رفع لواء القومية عاليا ليصد هجمة النازية . عصبية طاغية ما كانت لتصدها إلا عصبية طاغية ، قومية هاجمة ما وقف لها الجيش الأحمر لحمرة ، بل انهزم شر هزيمة إلى أن استيقظت ، بل إلى أن أوقظت سلافية الروسى وحسه التاريخى ليدافع عن الكرامة القومية .

الإسلام وحده ، وهو دين الله الذى جاءت به الرسل عليهم السلام ، حمل إلى البشرية سر تغيير الإنسان ، ذلك السر الذى آخى إخوان حقيقيا بين حوارى كل رسول ، ومن شاء الله من أجيال بعده . انتكست بنو إسرائيل بعد فترة الخلافة فى الأرض وعهد الله ، فنقض اليهود الميثاق ، وتحولت اليهودية إلى مجتمع مغلق ، متعصب ، مستكبر ، مستغل على ما ضرب عليه من الذلة . والآن قامت دولة اليهود ، دولة يغذيها حبل من ناس أمريكا ، ويملى لها حبل من الله ، لتكون فى العالم نموذج التعصب العرقى القومى الدينى . حشروا دينهم المزور مع تعنتهم القومى . ويحاول علمانيو العرب ، ومنهم من يزعم أنه مسلم يعتز بالإسلام وينتسب إليه ، أن يؤلفوا بين متناقضين ، بين القومية والإسلام ، أى بين الجاهلية والإسلام .

كان إسلام سيدنا عيسى عليه السلام دعوة للأخوة بين البشر ، شهد الله عز وجل

بالرأفة والرحمة لأتباعه . وبقيت الرأفة ، والرحمة آثار منها ، حتى فى دين النصرانية الذى احتفظ رغم التزوير والشرك بنسمة من عَبيير الإسلام الأول . تأخت أوروبا يومها تحت لواء النصرانية : كانت النصرانية رباطا داخليا لا يعرف الميز القومى ، ويخفف من وحشية التسلط الإقطاعى . فلما استأسدت النصرانية ، وتكتلت فى وجه الإسلام المنتشر ، وعدت على المسلمين وارثى رسالة الأخوة العالمية فى هجماتها الصليبية ، انكسرت روح تلك المجتمعات ، وانعكست الكراهية الموجهة للخارج على البنيات الداخلية ، ونشأت العصبية القومية التى غذاها وقواها الزحف الاستعماري . فتلك اليوم قواعد الجاهلية مرساة فيهم ، وأبرز مظاهرها العنف .

يقول قائل الجدلية المادية والتاريخية : ما هذا الكلام ؟ أية مثالية حاملة ؟ أى غوص على معانى لا تلمس باليد ؟ أى فهم خيالى للتاريخ ؟ أين الاقتصاد ؟ أين الصراع بين الأضداد الاجتماعية ؟ وهل كان للرحمة والرأفة والأخوة وجود إلا أن يكون هدنة فى غضون الحرب الأبدية بين الأغنياء الأقوياء الأسياد وبين الفقراء المستعبدين المسودين ، أو أبوية إحصانية خيرية من أبيات « أفيون الشعوب » ؟ .

طالما لعبت المادية بالمزاج العقلانى لمنظرى الشيوعية الحالمين الذين يزعمون أنهم أفضل من تعلم من دروس التاريخ . وقد هبت رياح التاريخ على الدولة الاشتراكية الثورية السوفياتية من لدن ميلادها فأصابت الأدمغة العبقريّة ، خاصة دماغ ستالين وما ستالين بدع فى الجاهلية ، وألهمته أن أقرب طريق لانتصار الشيوعية وأهم وظيفة لاستبداد البروليتاريا يتمثلان فى تعزيز جهاز القمع . وبث الرعب والوشاية والنفاق والشك فى المجتمع الداخلى ، وانهاض القومية الروسية لإخضاع القوميات فى الاتحاد السوفياتى ، ولمواجهة القومية النازية دفاعا ، والعدوان على العالم هجوما .

قلة ممن عمقوا النظر العقلى ، واستمعوا للأئين الإنسانى ، وتأثروا لآلام البشر واستقصوا الآفاق الجاهلية فعرفوا حدودها ، تجمعت لديهم عناصر الحكمة ، وهى الفكر الواضح والإحساس الإنسانى فرفعوا صوتهم ينادون ويستصرخون الأخوة بين البشر . يبحثون عن روح لهذه الحضارة المادية الجاهلية القاسية . أما رجاء جارودى فهو لا يزال مع إسلامه المعلن يحتفظ بإصرار على ماركسيته « الجزئية » ولله فى خلقه شؤون . أما

جارودى هذا ، وهو فيلسوف مرموق ، كان ولا يزال ، فى الماركسية ، فإنه ينشد الحضارة الأخوية ، ويرأها لا سبيل إليها إلا عن طريق ما يسميه بالمفارقة TRANSCENDANCE يعنى الألوهية والإيمان .

ويقول قائل القومية المنتصرة ، لا قوميات المسلمين المهزومة ، قائل أوروبا وأمريكا : لا بأس أن تُعانُوا أنتم الأمم المتخلفة من فُورَآن قوميتكم الناشئة . ولا بأس أن تتحدثوا عنها وعن آلام مخاضها . إنما أنتم أطفال فى هذا الميدان كما أنتم أطفال فى غيره . والطفل يحلو له أن يلعب بخيال يعوضه عن عالم الكبار . أحلام صبيانية يوتوبية هى « الأخوة بين البشر » . منا أيضا شعراء حاملون لا واقعيون يقولون بمثل ما تقولون . لهم عندنا متنفس فى جمعيات الرفق بالحيوان الخيرية ، وجمعيات حقوق الإنسان السياسية ، ومنظمات الغوث الدولية ، بل وأحزاب « الخضر » المدافعين عن سلامة البيئة . كل أولئك نشاطات هامشية ، مندمجة ، مقبولة عندنا لا تضر بالسير العام العقلانى لمجتمعنا ، بل تهب من قبلها نسمات عاطفية تزعمون أنتم الأمم الطفلة أنها تعبر عن ضمير الإنسانية المكبوتة . ترددون نفس شعارات شعرائنا الهامشين الأعداء . أما أن ترفعوا هذه الكلمات الضخمة : الجاهلية ، العصبية فلا ضير . وما هى إلا عبارات فى الهواء ، لا تخرج شعوراً ، ولا تُنكى مثل تعبيرنا بالامبرالية والاستعمار الجديد . ما كان ضرراً حديث بعضكم عن « الشيطان الأكبر » لو بقى الأمر كلاماً وفلسفة ، وما كان ليصبح لكم عندنا وزن لولا إرهابكم ومتفجراتكم وفرقكم الانتحارية التى طردتنا من بيروت وطردت إسرائيل من لبنان .

تحدثوا ما شئتم عن الأخوة بين البشر ، وعن نقيضها الجاهلية ، فنحن لا نرى ولا . نعتبر إلا ما تفعلون . احلموا ما شئتم وامضوا فى فلسفتكم القرونية . عيننا على « التعصب الدينى » ، هذا الإسلام المتفجر الذى يهدد مستقبل العالم ويهدد الاستقرار الدولى الذى بذلنا فى تشييده الجهود والأموال . ماذا تفعلون وأنتم عزل أو تكادون ، فما القصة إن أصبحتم أمة مصنعة ، إن امتلكتم التكنولوجيا ، إن تسلحتم بالذرة والإلكترون ؟ ! .

العصبية بحروف نارية أنتم ، والباقى كلام طفولى . وتحليلكم الروحى للتاريخ هراء لا معنى له عندنا لولا ما نخشى أن يترتب عليه من تصعيد التعصب الدينى وتسليحه نظير التحليل المادى الماركسى الذى استعمله الروس لحظة لبناء الهيكل المهدد الآخر .

أنتم والشيوعية عالميتان خطيرتان على الحضارة ، أنتم أخطر ولا شك ، فمع الآخرين لنا تاريخ مشترك ، وفكر مشترك ، وقسمة للعالم وتوازن . وأنتم أنتم العصبية المخربة .

هذه لفظة تَسْمَعُ لما يمكن أن يقال عنا ، وزبدة هذه اللفظة أن المجتمع الأخوي والإيمان بالله عز وجل ، وهو شرط وجوده ، هما المطلب المتلجلج في ضمير الإنسانية الشقية ببعدها عن الله عز وجل ، المتردية بانتكاسها في النسبة الأرضية القومية وفي المادية الملحدة المستمتعة الأنانية . مطلب يتلجلج ، وتعبر عنه ألسنة فلاسفة الغرب الطلائعيين مثل جارودي المسلم ، أو تنتظم للملاحقة شبحة الجذاب منظمات ترفض عنف الحضارة الغربية وقسوتها وأنانيتها .

جارودي استنتج ضرورة « المفارقة » كما يُطلق مصطلحات نشأ عليها ، باعتبارها شرطاً لإحلال الأخوة بين البشر ، وتعويض العلاقات الإنتاجية الرأسمالية البضاعية ، والعلاقات الاشتراكية التي بقيت بضاعية ، بل زادت في هذا المعنى على ما كانت عليه في المجتمع الطبقي المعترف بطبقته .

في منطق الذي يعذر فيه مؤقتاً ريثما يعمق إيمانه ، هداانا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه ، يطرح السؤال هكذا : ما مكان الألوهية في حياة البشر ؟ الجواب داخل المنطق المقلوب : مكانها ووظيفتها أن تتغير نظرة الإنسان للإنسان ليتأخى البشر ، وليحيى الخلق في مجتمع أخوي ليس فيه شيء من آفات الحضارة المادية التائهة .

هذا المنطق المعكوس أخٌ صِنُوْ المنطق الإسلام السياسي ، وهو منطبق نَجْدَه حتى عند بعض الحركات الإسلامية . يقول هذا المنطق : الإسلام لماذا ؟ فيجيب نفسه : الإسلام لتقوم الدولة الإسلامية الحرة العادلة الموحدة القوية . النسبة لغير الله عز وجل تترصد كل مسلم حديث الإسلام أو قديمه ، لكثرة ما يصحب الغائبين عن الله عز وجل ، ولطول ما يعافس الدنيا ومشاكلها اليومية ، وأفكارها وعداواتها وصدقاتها وتناقضاتها . تتضاءل عنده مكانة الألوهية ، فتدخل الألوهية في نسبية مع همومه وآلامه وآماله ، فإذا الألوهية وظيفه من وظائف حياته ، ملحقة به ، قابعة هنالك في أعماق ما ، لا وجه لها ولا نور . ومن لم يجعل الله له من نورا فما له من نور .

كم مرحلة من مراحل التربية والتعزب لله تعالى وذكره وعبادته وتقواه وحبه وحب رسوله ﷺ يجب أن يسلكها المؤمن وتسلكها الجماعة حتى تصفو النظرة الإيمانية التي تضع العبد مكانه الحقيقي ، مخلوقا مكلفا من لدن رب خالق ، مرزوقا ، مُماتا ، مبعوثا ، محشورا ، مسؤولا ، مجازى فى جنة أو نار ؟ .

نسبيات العالم ترهق الإنسان عن عبوديته ، وتغل رقبته ، وتوعر عقبته ، فمن له بتحرير قلبى عقلى يفك وثاقه ليرتفع إلى اعتبار كل من خلق من ذكر أو أنثى ، إلى الشعوب والقبائل ، إلى الخلق كافة والإنس والجن ، وحدة مخلوقة لا فضل فيها ولا تفاضل إلا بالتقوى ، ولا كرامة إلا بالعبودية لله عز وجل ؟ هذا الارتفاع يتجاوز بك حدود الواقع الملىء بالعصبية والقوميات ، يتجاوز بك العالم حتى تمتلئ إيماننا فترجع على الواقع تجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله التكميلية هى العليا ، غير ساخط ولا متشنج أمام تناقضات العالم وعصبية المجتمعات وتدافعها التى جعلها الله عز وجل فتنة وامتحانا . ذلك الارتفاع يرقى بك إلى الاستماع بالقلب المطمئن والعقل المتجلل بالسكينة المتحفز للتنفيذ إلى قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (2) . لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

عبية الجاهلية

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب في أصحابه : « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى » رواه ابن أبي حاتم . عبية بضم العين وفتح الباء والياء المشددة هي النفخ والاستكبار . وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان . » رواه ابن كثير في تفسيره . الجعل هو خنفساء البيت المسماة بأبي جعران . مبالغة في تحقير من تعظم واستكبر بنسبه الأرضي .

الناس رجلان كما قال الحبيب المصطفى ﷺ : ذاك الذى ارتقى بالإيمان والتقوى والكرامة فى نفسه والمعاملة بالبر ، وهو حسن الخلق ، لغيره ، والآخر الذى هوى إلى الأسفل بفجوره ، فشقى فى نفسه وكان شقاء لغيره ، الأول تطهر من عبية الجاهلية ، والآخر تنفخ بها وتعظم فحقره الله وصغره . أراد أن يصعد بالاستكبار ، فهان فى ميزان الإيمان . والحديث الثانى يذكر بنى آدم بالمساواة الأصلية لكيلا يظن ظان أن النسب الطينى رافعه عند الله تعالى اغتراراً بالأمجاد الأرضية التى علفت بأسرة أو قومية . فى مجتمع إسلامى سوى ينبغى أن يكون بلال الحبشى وخباب القين الحداد أكرم على الأمة من حاملى الأسماء المرتعشة خيلاء . ويمكن أن نقيس صحة مجتمع مسلم واعتلاله باقتراب تقويمه للناس أو ابتعاده من سلم القيمة عند الله .

وقد بدأ الاعتلال ، واختل ميزان التقوى الذى رفع أسامة بن زيد رضى الله عنهما ، الفتى الأسود الأفطس ، إلى مرتبة قيادة جيش من جملة جنوده أبو بكر وعمر . وعادت عبية الجاهلية واعتبار النسب الطينى مع القفزة الأموية على الحكم . فكانت إيذاناً بدخول الأمة فى دوامة التجهل ، أعنى التقهقر إلى معانى الجاهلية وقيمها . كل حضارة تساوى قيمتها قيمة الإنسان فيها بوصفه إنساناً ، لا بوصفه سليل أسرة أو عشيرة أو قومية . ومن تنفخ الأموية واحتقارها للموالى نبغت ردة الفعل الشعبوية . انظر ابن خلدون فى تحليله للعصبية والعصبية المضادة يضع قدمك على الدور والتسلسل فى ناعورة عبية الجاهلية

وعلى إهدار قوة الأمة فى الصراعات الداخلية .

يعتبر القوميون المعاصرون الدولة الأموية نموذجاً تاريخياً لانتصار القومية ، ويعتبرون عهدها عهداً ذهبياً ، وتعصبها للعرب وبهم مأثرة خالدة . لا غرو ، فالميزان الأراضى جامع .

أما ميزان السماء ، الميزان الذى يكرم آدمى المساوى لكل آدمى باعتبار الطينة ، فإنه يرفع فقط الجهود الفردية والجماعية لتجاوز النعرات والتحدى بالتقوى الجالبة للسعادة الأبدية الأخروية ، وبالبر والإحسان للخلق الجالين للكرامة الدنيوية .

فى ميزان السماء يعتبر المولى الوافد على الجماعة الإسلامية مرشحاً آدمياً للفضل والكرامة . الولاية بين المؤمنين هى الرباط العام فى الجماعة ، والمولى الوافد مرشح للدخول لهذه الولاية عضواً كريماً . فإذا بالرجعة الأموية تغلق عليه الباب وتتحول الكلمة إلى علامة التنقيص الاجتماعى ، أى النبذ الكلى .

المولى فى الشرع الإسلامى من له ولاية العتاق ، وهى العلاقة التى تستمر بين الفتى أو الفتاة الأسيرين العبدین وبين سيدهما بعد العتق ، وبمقتضاها يبقى العبد والأمة على اتصال بمحضنهما وحاضنهما حتى إنهم يرثانه شرعاً .

وبالمعنى العرفى كان المستند الغريب أو الضعيف إلى قبيلة يعيش تحت كنفها وحمايتها يعد حليفاً لها ويسمى مولى لها ، ولم يحارب المسلمون هذا العرف ، بل أبقوا عليه ليكون أصرة من الأواصر الجبلية التى ينتظر منها أن تقوى الرباط العام الإيمانى وتشده .

فإذا بالانغلاق العصبى منذ بنى أمية يفرغ هذا الشكل التنظيمى للمجتمع من مضمونه التربوى . قد فقدت الأسرة والقبيلة من روح الدعوة والرغبة فى تنشئة الفتى والفتاة الأسيرين على الإيمان ، والحفاظ عليهما بعد العتق فى دائرة المؤمنين ، كما فقدت القدرة على إشراك المولى الحليف فى حياة الأخوة الإيمانية ، ودمجه شيئاً فشيئاً فى مجتمع مآله المرسوم أن يصبح مجتمعاً بلا طبقات وبلا خصوصيات عرقية مراضية ، لولا الاعتلال والتجهل .

من سمات الانقباض القبلى القومى للعرب الأمويين ، قل من أسبابه المؤصلة ، التصدى للسلطة والمال من خلال العصبية لا من طريق الحق ، وبالنالى إحلال طبقية تصنف

المجتمع تصنيفا جاهليا محل الأخوة الإيمانية الرامية أصلا إلى تطبيق قانون : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ماذا صاحب العصبية الجاهلية من ظواهر أخرى جاهلية أردت الأمة إلى أن بلغت بها حالة التمزق والهوان الذى نعيشه اليوم ؟ لا تفسر العصبية وحدها التاريخ ، لكن العوامل الأخرى التى أدت إلى الانحطاط ما هن إلا بنات للعصبية . الملك العاض ابنها البكر ومنه تفرعت آفات الدولة ، واحتقار الوافد شقيقه ، ومنه تولدت الاستقلالات الاجتماعية عن وظائف الدعوة . ومن ذلك النسل الخبيث ، من عموماته وخؤولاته ، نشأت الطبقة والظلم الاجتماعى ، والتخويف ، والتفكير ، وتعطيل الآلية السياسية الاجتماعية الكلية الإسلامية العظيمة التى عليها مدار حياة الأمة ، وهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فى المجتمع الإسلامى الصاعد تكون روابط الجبلية الأسرية والعشائرية والقومية حليفة للروابط الحياتية والحرفية والاقتصادية والمدرسية والثقافية لخدمة الرباط الإيمانى الولائى وتقويته ودعمه . فلما بدأ المجتمع المسلم فى الانحدار أصبح الفرد فى مجتمعه الذى تحكمه العصبية وبنياتها يساق مع القطيع ، فى أسرته ، وعشيرته ، ومواليه ، ومدينته ، وحرفته ، وجيشه ، إلى مصير دنيوى يهبط من هين إلى أهون . عقم الوسط الاجتماعى من مخصبات الدعوة والتربية بعقم الجهاز الحاكم من مخصبات الحق والحرية والمسؤولية . وفى المساجد وبيوت العلماء العاملين ومجالس الإيمان انزوت الدعوة ، فحافظت لنا كل هذه القرون على روح الإيمان . ووجد المسلمون فى ظل المسجد وحلقة الواعظ ودرس العالم ملجأ ، واتخذ إلى ربه سبيلا من حرص على مصيره الأخرى من طريق جانبية بعد أن طلقت الدولة الدعوة واختصم السلطان مع القرآن .

إننا نعيش فى عصر التكنولوجيا ، يواجه الإنسان الآلات ، ويعايشها ، ويغاديهها ويماسيها . جارودى ومن جرب تجربته يصرخون من تحول الإنسان فى العالم المصنّع الى آله تتفاعل مع آلات ، ويستصرخون من يدلهم على الأخوة الاجتماعية وعلى الألوهية . كثير من الغربيين الأشقياء بوسطهم التقنى ، بعمارة الإسمنت المسلح ، بالتلوث والصخب وتراكم الأشياء يتهافتون على مجتمعات بشرية بدائية عليهم يروحون روح الفطرة . ولم يعد الوسط الاجتماعى فى بلاد المسلمين ، الذى يغرى السواح « الروحانيين » بعنايته ، هو

المركز الإشعاعي للإيمان كما كان ذات يوم . يكونه إن شاء الله قريبا بعد أن يتجدد وتنظم فيه وظائف الدعوة والتربية بانتظام وظائف الدولة على قيم الكرامة والتقوى ، بعد ذهاب الجاهلية العصبية أم الخبائث .

ينبغي أن ينظف المجتمع الإسلامى من دعاة العصبية ، فهم ليسوا منا بالنص القاطع . قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . رواه أبو داود . رُوح الإسلام وروحه لا يجدهما مجتمع فشت فيه ريح العصبية وثنائها . عن جابر بن عبد الله رضى عنه قال : « كنا فى غزاة ، فكسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار . فقال الأنصار : يا للأنصار ! فقال المهاجرون : يا للمهاجرين ! فقال النبى ﷺ « دعوها فإنها متنة ! » رواه البخارى .

إن التركى الذى اضطهد العربى فقام العربى غاضبا لكرامته ليس هو التركى المؤمن ، بل هو التركى القومى ، جاء بها متنة من الجاهلية الألمانية ، وعمقها فى أساطير طوران وخرافة الذئب الأشهب . وإن العربى الذى هاجم إيران الإسلامية ما هاجمها من موقع إسلامى ، بل فعل من موقع بعثى يعادى الإسلام باطنا وإن كان يحرق له البخور ظاهرا . والبنغالى المتعصب فى حربه القومى ما حارب المسلم البنجابى ، لكن حارب الأثرة القومية ، حارب عيبة الرجل الأبيض الشمالى آكل القمح الذى يحتقر الأسوى النحيف آكل الأرز ويظلمه . دعوها فإنها متنة ، ولتناصر فى الحق . كانت العرب فى عصبيتها ترفع شعارا يلخص روح العصبية ويوجز مستلزماتها فى قول القائل : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . تعصب ضد الحق مع القومية . أخوك هو العربى قبل كل دين ! وليذهب مليار مسلم ونيف إلى الجحيم إن رضى حفنة من النصارى الذين استبدلوا ، ولما يشعر القومى المسكين ، ببرنامج القومية برامج طائفية . بدّل الإسلام روح ذلك الشاعر الجاهلى ، وحوله من خدمة العصبية والباطل إلى خدمة الحق والتأخى فى الله . نطق النبى ﷺ يوما قال « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . عرف المؤمنون الصحابة المقال لعهدهم به وهم العرب الأقحاح ، لكنهم لم يدركوا مغزى استعماله الإسلامى . فسألوا النبى ﷺ : « يا رسول الله ! هذا أنصره مظلوما (يعنى أفهم كيف أنصره مظلوما) ، فكيف أنصره ظالما ؟ » قال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » . هذا حديث متفق عليه .

عرب قبل كل دين !

هذه الصرخة نفّس بها جمال الدين الأفغانى رحمه الله عن لواعج هزيمته فى أخريات أيامه ، بعد مكثه فى مصر تسع سنوات نفخ فيها من روحه الثورية فى جماعته . غادر مصر إثر إخفاق الثورة العرابية مع صفيه محمد عبده رحمها الله . وبعد فترة لندن وباريز وإصدار « العروة الوثقى » تردد بين إيران وشبه الجزيرة العربية وموسكو حتى استطاع السلطان عبد الحميد أن يستقدمه إلى الأستانة سنة 1892 ميلادية . هنالك فى العاصمة عاش خمس سنوات محاطا برعاية السلطان ، وبالرقابة المعلومة .

وجد نفسه هذا الرجل القوى الشكيمة فى قبضة الدولة التى طالما أهاب بها لتنهض وهو إلى جانب اليأس أقرب منه إلى جانب الرجاء . فلما تمكن من أذن السلطان راودته فكرة إصلاحية . رجع من ثوريتة كرها كما رجع محمد عبده بعد عودته من المنفى . فحاول أن يساهم فى المعركة القائمة يومئذ بين السلطان و « الفتيان الترك » من جمعية

« الاتحاد والترقى » . كان هؤلاء يريدون تترك العرب وسائر السلطنة . أى كانوا يرمون إلى هدف معاكس الاتجاه لهدف السلطان الذى كان يدعو للوحدة الإسلامية ، المرتفعة فوق القوميات ، الجامعة لأشتاتها . وكان قد نظم فى محاولته الترميمية دعاة يوجههم الشيخان أبو الهدى الصيادى والمدنى التونسى رحمهما الله .

كانت العلمانية الطورانية يومئذ غريمة للتيار العثمانى الإسلامى . هذا التيار الأخير وقف موقف التضاد مع عبدة الذئب الأشهب ، دعاة التريك . لم إذن لا تتعرب الدولة التركية لتتمكن فى إسلاميتها ؟ لم لم تتعرب كما تعربت كل الدول التى حكمت دار الإسلام ؟ لم شذت فى هذا عن غيرها ؟ والأسئلة وجيهة قيمة فى ذلك الزمان وفى كل الزمان . فما تكون العروبة بمعنى تبنى لسان القرآن وتبنى العرب بصفاتهم أمناء الوحي السابقين ، وحب العرب لسابق فضلهم ولما يرجى دائما من غنائهم شقاقا عن الإسلام أبدا . لا تكون العروبة القائمة بالإسلام شقاقا ما لم يتحزب العرب لغير الله عز وجل ، وما لم تكن الدعوة إلى قوميتهم ندا وضرة للدعوة إلى الله عز وجل .

كان السلطان الصالح محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية سنة 1453 رحمه الله وأجزل له المثوبة ، والسلطان سليم الذى تلقب بالخلافة من بعده ، تراودهما فكرة تعريب الدولة. ذكر الأفغانى صاحبه السلطان بهاتين السابقتين ، ولعله رجا بصدق أن يعالج هذا الترميم المتأخر بتعريب يقرب الترك من علوم الدين ويساهم فى إصلاح ما أفسده الاستبداد المزمن وما كان يفسده إذ ذاك تناحر القوميات . وهيهات ، فقد كان الذئاب الشهب قد تمكنوا فى البلاد التركية يمولهم اليهود وتشد أزهرهم أوربا الحانقة على « الرجل المريض » . كان لم يبق بعد وفاة الأفغانى رحمه الله سنة 1897 إلا عشر سنوات لتسلم القوميين الترك زمام السلطة استعدادا لقلع السلطنة من جذورها .

لنسمع الأمير شكيب أرسلان رحمه الله يعرض وجهة نظر هؤلاء القوميين الطورانيين لندرك كيف جاءت صرخة الأفغانى حين قال : « نحن عرب قبل كل دين ! » وجوابا على أى شىء جاءت ، ووسط أية ظروف اقترح التعريب دواء لأمراض الدولة المتحضرة . قال الأمير : « وهناك فئة ثانية تدعى الطورانية تخالف الفئة الأولى ، أى الفئة التى تقول بالقومية العثمانية الإسلامية فى كل هذه النظريات ، وأشد دعائها ضياء كوكب ألب وأحمد أغانف ويوسف آقشور [اليهودى] اللذان قدما من روسيا وجلال ساهر ويحيى كمال [...] . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة ، وأغرقها مجدا ، وأسبقها إلى الحضارة [دائما التريمة القومية ، عبية الجاهلية !] . وأنهم هم الجنس المغولى الواحد فى الأصل ، ويلزم أن يعود واحدا . ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية . ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبيريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول والروملى بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين وإلى المجر والفندلادين فى أوروبا . وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى . وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون . فهم ترك أولا ومسلمون ثانيا . وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية . وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أترك فكعبتنا طوران ! وهم يتغنون بمدائح جنكيز ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها » . (3).

(3) نقلا عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، لأبي الحسن الندوي ، ص : 217 .

التاريخ رصيد حكمة ، والمنحدر القومى واحد . نفس الإعجاب بالأسلاف الجاهليين ، نفس العداء للدين إلا إذا كان خادما للقومية . نلاحظ أن الأتراك العلمانيين كانوا يقولون عكس مقالة العثمانيين المسلمين . هؤلاء يقولون : نحن مسلمون أولا أتراك ثانيا . وأولئك الأبعدون يقولون : أتراك قبل كل دين ! وليفهم من شاء : أتراك بلا دين وهذه ما صرحوا بها إلا بعد استيلاء الطاغوت مصطفى كمال على الحكم . وإن كانت العلمانية برنامجهم كما هى العلمانية البرنامج الحتمى لكل قومية . وما نهى عن عضبية الجاهلية هادينا الأمين ﷺ بذلك الإلحاح وتلك الصرامة لو لم تكن الخطر الأعظم على الدين .

ها هو إذن رائد النهضة الإسلامية الثائر الأسد جمال الدين الأفغانى ، وهو فى قفصه الذهبى بالقرب من السلطان ، لا يقر له قرار أو يجد سبيلا لينصر القضية الكبرى التى أوقف عليها حياته رحمه الله . فى أى سياق برزت منه هذه العبارة المدوية : « عرب قبل كل دين » ؟ أهى رد مباشر على الطورانيين الذين قالوا « أتراك أولا » ؟ أتمشى كلمته بنفس القوة وفى الاتجاه المضاد كما يعرف علم الميكانيكا ردة الفعل ؟ لنسمعه يقص محاولته ، ولنترقب كيف صدرت العبارة .

قال رحمه الله : « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما [...] وهو اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة [...] . لكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفها سياسة وأسقمه رأيا ! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى وفى الدين الإسلامى من عدل ، وفى مسيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات . لكن ، مع الأسف ، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربى خطأ بينا [...] لو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم ، واستعربوا ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم (كان شبح « الخلافة » العربية العباسية مخيما على تلك المعركة) [...] فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ أو أمنع قوة ؟

« إننى أحزن وأتأثر كلما افتركت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان

العربى ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، (واستبدالهم به) اللسان التركى ! [...] ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية . ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة ، لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ ، أو بيانا يترجم عن جنان . وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا ، وانحط معنى [...]

« فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر . فالأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب ! [...] .

« لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضع فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له [...] فحولت وجهى عما لا يمكن إلى ما يمكن » (4) .

أخشى أن يكون قوله : « وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر » إشارة إلى النصارى العرب الذين كانوا فى ذلك الزمن رواد الأدب العربى والصحافة العربية والتأليف العربى والأكاديمية العربية . أخشى أن تكون أخوة اللغة هنا تتعاضم لتلطم أخوة الدين . أخشى أن تكون صيحة « عرب قبل كل دين » أختا متقدمة رائدة لكلمة محمد عبده الداعية ليأخذ المسلمون القرآن فى يمينهم لا آخرتهم ، وما اكتشفه الأولون والآخرون لديناهم . أخشى أن تكون المدرسة الإصلاحية كلها هائمة فى ضباب القومية والعلمانية : تلك الضبابية التى انقشعت عن كلمة الكواكبى الصريحة القبيحة : « الدين للآخرة فقط » رحمهم الله وعفا عنا وعنهم آمين .

لولا هذه النكتة التى تبدو لنا اليوم بشعة ، ومعركتنا مع ذلك هى نفس معركتهم تجاه القومية والعلمانية وإن اختلف الزمان والظروف ، لكان دفاع الأفغانى رحمه الله عن العربية هو الصواب بعينه ، ولكان اقتراحه المتأخر بتعريب الدولة العثمانية من أكثر الانتقادات التى وجهت لهذه الدولة سدادا . على أنه لا يعدو أن يكون انتقادا ترميميا ، فالاستبداد الوراثى الملكى استبداد لا مكان للاعتداد به والاعتزاز ، عربيا كان أو عجميا .

(4) نقلاً عن كتاب محمد عمارة : « تحديات لها تاريخ » ص : 240 .

إن عالمية الإسلام تجر معها كما يجبر الملزوم لازمه عالمية لغة القرآن . وإن المليار مسلم ونيفا ، ويتزايدون أصلح الله وبارك ، ليس لهم مستقبل أمام التكتلات العظمى التي لها وحدها الحياة مستقبلا إلا بوحدة إسلامية لغتها المشتركة لغة القرآن ، لا عوض عن هذا إلا التشرذم في اللهجات القومية .

فيما قومنا العرب ! لم تريدون لغة عظيمة فقط ، لا تفكرون ، حتى تقليدا ، في نشر لغتكم في العالم لتناطح اللغات القوية ؟ لم تحرصون على التزمت بعروبيتكم وفي عروبيتكم في الوقت الذي انكشفت فيه علمانية النصارى القومية المعلنة المطلوبة منذ قرن عن انتماء طائفي لنصارى أوروبا ويهود الغزو ؟ غرأجيالا منكم أن اللسان العربي قد يكون الرباط الجامع الممكن مع تلك الأقلية التي كنتم تنظرون إليها كالنجم الثاقب في سماء الحضارة لتقدمها النسبي ، فأين أنتم من عزة بالعالم الإسلامي الناهض رويدا بإسلامه ، أين أنتم من عزة بالله عز وجل وبالإسلام العظيم الذي لا يمكن بحال أن ينفك عن اللغة العظيمة ؟ وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

★ ★ ★

أفحكم الجاهلية يغنون ؟

وردت كلمة « جاهلية » أربع مرات في كتاب الله عز وجل ، فيإضافة المعانى التى وردت بها وكتابُ الله حكمة ، يمكن أن نجمع أطراف هذا المفهوم الأساسى فى المنهاج ، وأن نعطيهِ أبعاده الكاملة بعد أن عرضنا بحمد الله فى فصل سابق جذور المفهوم كما يعطيهِ مبناه اللغوى . فالجاهلية لغة : جهلٌ بالله عز وجل ، ينتج عنه جهل بمعنى عنف . ولا يتنافى الجهل بالله تعالى ، وهو أعظم الجهل وألغنه ، مع العلم بعارضات الممكنات ، وحادثات المكونات .

(1) قال الله تعالى يُذكر المؤمنين بهزيمة أُحد وما أنزل عليهم بعد الهزيمة من سكينه جاءت على شكل نعاس ، فسمى السكينه أمانةً مقابل الجاهلية . قال تعالى : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . ﴾ (5)

(2) وقال عز من قائل فى سورة أخرى يقابل حكم الجاهلية بالحكم بما أنزل الله : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ : وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴿ أفحكم الجاهلية يغنون . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . ﴾ (6)

(3) وقال سبحانه فى سورة أخرى يوصى نساء النبى ﷺ أن لا يظهرن بمظاهر الجاهلية ، وأن ينبذن سمتهما و « ثقافتها » وعاداتها : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن . ولا تبرزن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ (7)

(6) المائدة : 48 ، 49 ، 50 .

(5) آل عمران : 154 .

(7) الأحزاب . 32 ، 33 .

(4) وقال وهو العزيز الحكيم يُذكر المؤمنين بغزوة الحديبية ، وكيف استيقظت حمية قريش وكيف انفعلت أمام خطي المؤمنين الثابتة وتقواهم : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقُّ بها وأهلها . وكان الله بكل شيء عليمًا ﴾ (8) .

في الموقف الأول ، في هزيمة أحد ، طائفة من الصحابة رضى الله عنهم ثبتوا مع رسول الله ﷺ . وفدوه بأرواحهم من الخطر ساكنين ثابتين أولئك سلموا من مداخلات الجاهلية ، لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يززعهم الحدث المفاجئ عن ثقتهم بالله ورسوله . منهم أبو طلحة رضى الله عنه الذى كان يترس عن رسول الله ﷺ بجسده بعد انكشاف الناس ، ويقول كما جاء عند البخارى : « بأبى أنت وأمى لا تُشرف ، [لا تظهر للكفار] يصيبك سهم من سهام القوم . نحري دون نحرك ! » وترس عن رسول الله ﷺ ذلك اليوم أبو دجانة بعد أن كان بطل المعركة المُعلم ، والنبل يتلاحق في ظهره . رضى الله عنه . وترس عن رسول الله ﷺ زياد بن الكن حتى قتل هو وخمسة من أصحابه . رضى الله عنهم .

أما الطائفة الأخرى التى لم تثبت فهم الذين تأثروا إما بالطمع فى الغنائم لما رأوا فرار الجيش القرشى أول المعركة فزالوا عن مواقعهم التى أقامهم فيها رسول الله ﷺ فكان ذلك سبباً للكارثة . وإما تأثروا باستفزاز اليهود والمنافقين ، واستخفهم الاستفزاز عن السكينة وعن الأمانة وهى الأمن القلبي ثقةً بالله عز وجل .

هذه الطائفة الجاهلية المنضوية تحت لواء الإسلام ، أعنى المنافقين ، كانوا بدعايتهم السابقة واللاحقة السبب المباشر فى كون طائفة من المسلمين ﴿ أهمتهم أنفسهم ﴾ عن القضية ، وعن الثبات وعن حسن الظن بالله تعالى . كان عبد الله بن أبى رأس النفاق يقول : « لو أطعتمونا ما قتل منكم أحد ! » وكان - لعنه الله - قبل المعركة يخذل الناس عن الخروج ، قال الله عز وجل فى حقه : ﴿ الدين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ (9) .

(8) الفتح : 26 .

(9) آل عمران : 168 .

فى موقف أُّءء ءءءلى سماء الجاهلىة فى الءهُمُّ بالنفس عن القىام بالواءب؁ ومعناه الأناىة وما ءولءء عنه من قلة الءقة بالله عز وجل؁ وقلة الانضباط والءفة إلى الاسءماع للمُرجفىن . وءنءءر الأوصاف فى سىاق الآىاء من سورة آل عمران إلى مشارف النفاق . فى الجملة يمكن أن نقول بأن الجاهلىة أناىة ونفاق .

فى جاهلىة الءكم بالهوى بءل الءكم بما أنزل الله نءء أن من سماء الجاهلىة ءفضىل الرأى البشرى على الوءى؁ والزىغ عن الشرعة الإسلامىة والمنهاج إلى شرعة المصالح ومنهاج الشهوة؁ وابتغاء الفءنة أى الكىء والمكر؁ لءضلىل المؤمنىن عن بعض ما أنزل الله . والضمائر فى الآىاء ءعود على أهل الكءاب . فلو رءعنا إلى جاهلىءنا المعاصرة لوءءنا أن أهل الكءاب كانوا ءعاة العلمانىة السابقىن؁ والفاءة العلمانىة الءى زُجَّ فىها بكءىر من القومىىن من ذرارى المسلمىن ءنءمى جذورها الفلسفىة إلى فلاسفة نصارى هم سلف هذا الفكر . هوبز الإنءلىزى النصرانى ءعم الءكم المءءبء الءىوقراطى الذى بمقتضاة ىءءمع على رأس واءءة ءاجاً الءىن والءولة . ءعا هذا الفىلسوف المءشبع بنصرانىءة؁ إلى « ءىن مءنى » ىءووء علىه الءكم؁ لا ىسءمء ءءء شرعىءه الءاكم سلطانه من أى ءق مطلق؁ لكن من قءرة الءاكم على إءراز المصلءة؁ وهى عنءه السلم . ومن « عءء اءءماعى » هو أساس اسءبءاءه . وكانت السلم أهم مطلب فى زمانه فى النصف الأول من القرن السابع عشر؁ عصر الءروب الأهلىة؁ واسءبءاء كروموىل بعء مءءل الملك . لوك الإنءلىزى نظر لإسقاط الءكم الءىوقراطى من موقف مناقض لهوبز؁ لكن الءقى معه؁ وهو النصرانى المءشبع بنصرانىءة؁ فى ضرورة هءم الأساس الءىنى للءكم . روسو الفرنسى فى القرن الءامن عشر؁ وهو النصرانى البروءسءانى فى أعماقه؁ ءارب الءكم الءىوقراطى واقتراح « ءىناً مءنىاً » يعطى المءءمع رباطا عاطفىاً لا ءمنءه النصرانىة الكنسىبة عءوة المءءمع .

إذا كانت جاهلىة الفءنة بنسف الءقة بالله ءعالى من عمل المنافقىن الءءلاء وسلاحها الغزو النفسى؁ فإن جاهلىة الءكم بالهوى سلاحها العقلانىة . مءاهب ءقءرء بءل الءىن؁ شىرعة مقابل شىرعة؁ منهاج عوض منهاج . ولسنا نءافع عن النصرانىة الءى انءقء إفساءها للبشر نصارى مءل هوبز وصاىبىه؁ أو ملاءة مءل مكىافلى وفولءىر وإءوانهم لكن نءل

العلمانية على سلفها وأصولها قبل ظهور المذهب القومي .

هل ولدت العلمانية « والدين المدني » القومية في تاريخ أوروبا ؟ هل كان العكس على هامش تاريخ المسلمين منذ قرن ، فولدت القومية العلمانية ؟ أيهما في عقله المثقفين شرط للآخر ؟ وأيهما المشروط ؟

في النظرة الإسلامية القرآنية السنية تلازم : عبية الجاهلية في اللسان النبوي هي حمية الجاهلية الواردة في سورة الفتح . والحكم بما أنزل الله جاهلية هوى ، سواء كان هذا الهوى ميلا للشهوة ساذجا ، أو كان حسابا للمصلحة مفلسا إن كانت المصلحة تصطدم مع الإسلام . عصبية قومية ، عقلانية علمانية ، هذه معادلة جاهلية تامة جهلا وعفا .

في غزوة الحديبية تعبأت النخوة القرشية لتصعد جند الله عن دخول مكة ! « القومية العربية » في ذلك الإبان كانت لقريش دينها القومي ، « دينها المدني » ، أصنام ، وحج ، ومصالح اقتصادية ، وهيبة سياسية ، وكلها لا تثبت إن دخل محمد ﷺ وأصحابه ولو حجاجا . لذا نهضت « القومية » لمحاربة الإسلام .

الآيات من سورة الأحزاب توصي المؤمنين بالاستقرار في البيت كما يليق بالمتقيات ، وأن لا يخضعن بالقول وأن يقلن قولا معروفا ، وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى . في الآيات الأخرى التي وردت فيها كلمة « جاهلية » تُحدد مفهوم الكلمة القرآني في بعده النفسي الفكري ، في مجاله السياسي العسكري التربوي . هنا تُحدد الآيات الكريمة الموجهة لنساء النبي وللمؤمنات من ورائهن الناحية السلوكية العملية اليومية للمجتمع الإسلامي . يتقدم التوجيه نفى المماثلة مع المجتمع الجاهلي والسلوك الجاهلي : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ ليكتمل عندنا تصور عام للإسلام في مقابل الجاهلية ، بالمخالفة الواجبة لسمتهم . أي لنمط حياتهم ، في الأسرة كما في السياسة والحكم ، والنفسية والعقلية .

الإسلام يخالف الجاهلية ، منطلقا وأهدافا ، شكلا ومضمونا . يا من يحلمون بوعاء القومية يحتوي أصالة ! أي مضمون « أصيل » يليق أن تضمه حنايا القومية الانفعالية إن لم يكن مضمون الأصالة الجاهلية ؟ والجاهلية معني سار في التاريخ ، ليس فترة من تاريخ العرب في شبه الجزيرة . الجاهلية عصبية قبل كل شيء ، أي تقلص في الوجود من

الانتساب إلى الله عز وجل إلى الانتساب القومى لا غير ، ثم هى نكوص نفسى عن
الصدق والثقة بالله تعالى ، ونكوص فكرى عن التلقى للحق الموحى به ، ونكوص عن
أخلاقية السلوك ، ونكوص بكل ذلك عن عالمية الدعوة ، وعن خلود الرسالة ، وعن
مواجهة حقائق الآخرة بعد الموت . القومية العلمانية آفاق نكوص وعنق .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

★ ★ ★

« وإنه لذكر لك ولقومك »

قال مولانا جلّت عظمته يوصي رسوله ﷺ لبسمع فتتبع : ﴿ فاستمسك بالذى أوحى اليك . إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك . وسوف تسألون ﴾ (1) .

هذا الذى أوحى إليه ﷺ هو مضمون الرسالة ، به تميزت معالم الإسلام عن شرعة الجاهلية تميزا رفع نسب من تلقى الوحي ومن آمن به معه إلى السماء ، بينما بقيت نسبة القومية من لصق بها وتعصب لها وشيخة أرضية . الوحي ومرتبته السامية ومصدره الإلهي رفع ذكر الوشيخة القومية ، فلا تذكر العروبة إلا ذكر معها الإسلام . لغة العرب حملت الوحي وأعطته خصائصها البلاغية ، ومن ثم ارتفعت إلى الخلود ، فألفاظها ومبانيها مراكب لأسراره ومعانيه ، وبصحبته للوحي ، ولزومها له وخدمتها ، أمكن لها أن تصبح طول تاريخ الإسلام والمسلمين ذات الأثر الحاسم في تحديد الفقه الإسلامى وتوجيه الأدب الإسلامى ، وصبغ الحضارة الإسلامية . حتى إن لغات الشعوب الإسلامية غير العربية ، مثل اللغة الفارسية وهى لغة عريقة راقية ، واللغة التركية ، والأردو وهى أحدث منهن ، ما وسعها إلا أن تستقى من معين لغة العرب المشرفة بالوحي لتكتسب بعض الروحانية فتعبر عن بعض حاجات المسلمين العجم ما دون الحاجة القلبية الإيمانية التى لا يروى غلتها إلا اللفظ العربى ، لفظ القرآن الكريم .

ذكر اللغة العربية سار فى الأرض طولا وعرضا ، وسار فى التاريخ ، وله الخلود ، ولا نذكر العربية دون ذكر العرب الذين نشأت فى أحضانهم ، ونطقت بها فطرتهم ، وانبثقت عنها عبقريتهم . فيأتى العربى القومى فى هذا القرن الخامس عشر المبارك على الأمة إن شاء الله تعالى فينتشى بلغته المعظمة ، ويفاخر النجوم بأمجاده القومية المجلوة جلوة العروس فى هذه اللغة حاملة التاريخ ، ممدودة الأصالة ، ضامنة الهوية . ينسى ، (بل غالبا ما يجهل بكل بساطة) أن لغته لولا الوحي الذى غشيها لكانت لغة غابرة ، لولا القرآن الذى

(1) الزخرف : 43 ، 44 .

بلورها لا نمنسخت ، لولا الإسلام العظيم الذى رفعها من ماديتها الوثنية لما رفعت يوما رأسا ، ولا سجلت تاريخا ، ولا كان لأهلها من الأصالة ما يستحق الفخر ، ومن الهوية ما يليق بالذكر.

يثبت الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة من سورة الزخرف أن الوحي هو مناط عز العرب ، قومه ﷺ ، وأنه السبب الأول والأخير الذى به يخلد ذكره ﷺ وذكر قومه . الوحي أعطى القوم هذه الكرامة لما قبلوه واتبعوه ، لا اللغة ولا العرق ولا التاريخ القبلى الهمجى.

قلنا آنفا : إن اللغة العربية أعطت الوحي خصائصها البلاغية . سايرنا فى التعبير ما درج عليه الناس فى التخاطب من نسبة الأشياء بعضها إلى بعض ، ونسبة الأفعال إلى مصادرها الأرضية المخلوقة . إن الله عز وجل مدبر الكون وخالقه هو يسر للعربية ظروفها ، خص العرب وهم قوم من خلقه بما علم أنه يناسب ما يريد إظهاره من رسالته الخاتمة ، وألهمهم إلهام الفطرة لسانا أعده على مر الأزمان ليكون وعاء لوحيه . والله سبحانه وتعالى بالغ أمره .

إذا كان القومى العربى ملحدا ماديا ، أو كان غافلا عن الله عز وجل ، فسرعان ما يعبر عن هوسه فيضيف الإسلام إلى العروبة إضافة الظاهرة إلى سببها ، ويضيف القرآن إلى اللسان العربى وكأنه بعض إنتاجاته ، ويزعم إن الإسلام دين العرب قبل كل شئ ، أو أن العرب عرب أماجد بقطع النظر عن كل دين . فإذا كان معتزا بالإسلام عن إيمان أو عن حمية تراثية سمعته يقلب مدلول الآيات الكريمة ، فلا يعزو للوحي شرف العروبة ، بل يمتن على العالم بأن قومه العرب هم نشروا هذه الرسالة العالمية العظيمة بعد أن حملوها فى أحضانهم ، وسمعته يؤلف المكونات العربية لعبقرية الرسول العربى . من أين جاء هذا الرسول ؟ فى أى بيئة تربى ؟ بمن تأثر ؟ ولو كان العرب الجاهليون أصحاب ثقافة مكتوبة لقال : لمن قرأ هذا الرسول ؟ وبأى فلسفة تغذى ؟ .

الإسلام فى نظر المادى الملحد ، والرسالة والرسول ، موجبة من موجات التاريخ العربى ، فهو من أمجاد العروبة الخالد . الإسلام ما هدم إلا القليل من عادات العرب ، فهو

إصلاحية عربية أهلت الحضارة العربية الأصيلة لتخرج للعالم فتعمه .

الإسلام فى نظره ثورة عربية وحدث العرب فأصبحوا قوة سياسية عسكرية بها
خرجوا من نطاقهم المحلى إلى المصير الباذخ .

★ ★ ★

« الله ابتعثنا »

جهل أولئك الوحي ومصدره ومعناه فقلبوا الحقائق ، وعلم كل ذلك ، معاناة تاريخية ، وتشربا قلبيا واقتناعا عقليا أصحاب رسول الله ﷺ فلمسوا ما وقع في حياتهم من تغيير ونسبوا الأثر إلى مصدره . عمر بن الخطاب رضى الله عنه علم أن العرب ما عزوا إلا بالإسلام فقال قوله المشهورة : « إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام . فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .. عاش هو جاهلية العرب ، قاسى منها ، كان أحد أساطينها ، رأى موكب الشرف كيف تحرك ، ارتفع فى كفالة الموكب الشريف من حضيض شركه ، ساهم بجهاذه الشاكر فى تخليص الجماعة الأولى ثم المجتمع العربى الإسلامى من عبية الجاهلية ، كان فى القيادة فأمكنه متابعة المسيرة ، وأمكنه أن يدرك مكان الوحي وهدايته فى العملية كلها . ذلك وأمثاله لا يقبلون الوضع ، بل يستمعون امتنان الله عز وجل على العرب حيث رفع لهم ذكرا بنزول الوحي بلسانهم فيشكرون ، ويستمعون أنهم مسئولون عن رعاية الوحي والاستمسك به ، والجهاد لنشره ونصره ، فيخشون المسئولية يوم القيامة ويهبون لتبليغ الرسالة حاملين مسئوليتها (بمفهوم الكلمة العصرى) .

هذا جندى من جنود عمر رضى الله عنهما اسمه ربعى بن عامر ، جندى من أولئك المسلمين الذين عرفوا بالمعاناة ما هى الجاهلية وما هو الإسلام وما موقع العروبة بينهما ، يدخل على رستم قائد الفرس مفاوضا ، فينطق بكلمات تنم عن درجة الاقتناع الإيماني ، وعن درجة الوعي العقلى ، وعن درجة التصميم الجهادى ، لأولئك العرب المسلمين الذين نشروا الإسلام عن شكر لمنة الله عليهم بالإسلام ، عن مسئولية . قال فى ذلك البساط المستكبر وهو فى لباسه الخشن برمحه القصيرة وهيئته الساذجة : « الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

لم يقرأ ذلك العربى ماركس ، ولم يتخرج فى تنظيم لينينى ، ولم يدخل فى حوار مثقفينا حول علاقات القومية بالوحدة والاشتراكية . ما نطق به كان برنامج الإسلام فى

خطواته العالمية ، فى بداية الفتح الإسلامى .

ذهب مباشرة إلى نقطة القوة ، إلى منطق الحق ، إلى الإيمان بالله عز وجل إليها مطاعا أمر المسلمين أن يحرروا البشر من كل عبودية لغيره سبحانه . نسبة إلى الله عز وجل رفعت ذلك الجيل القوى إلى عالمية الدعوة وأخوة البشر ، بينما ترى القومى العربى المعاصر يلتف فى عباءة قوميته لتعطيه أصالة بين البشر . تراه يرفع أعلام قوميته ليلتف حولها أشتات عرب ضاعت منهم هويتهم . أولئك اعتزوا بالإسلام فانطلقوا ليحرروا البشر ، هؤلاء التصقوا بالعروبة فاعتزلوا فى الخصوصية القومية عساهم يستعيدون مزقة من إنسانيتهم.

ثم يتحدث ربيعى عن ضيق الدنيا بالشرك والكفر والظلم ، وعن سعتها بالإسلام ، والعبارة واسعة حافلة بنوايا أمة فى مسيرة النصر .

ويتحدث عن الإسلام . وكان عدل عمر نموذجا ما ثلا عاش ربيعى فى وارف ظلاله ، لم يكن عدل الإسلام برنامجا يوتوبيا .

★ ★ ★

إلى قيادة العالم يا عرب

ينتظر المسلمون العجم من المسلمين العرب أن يأخذوا زمام النهضة الإسلامية .
المسلمون فى العالم ينظرون إلى المسلمين العرب نظرة اعتراف بالجميل ، ينظرون فيهم إلى أبناء الصحابة المجاهدين . سفهاء العرب المتنكرون للإسلام ، المستمسكون بالعبية الجاهلية وإنما ينفخون فى رماد . لأن ركب الإسلام المتيقظ المنبعث أصبح فى منطق السياسة العالمية المرشح الوحيد للتقدم بالمسلمين ، ولأن المسلمين العرب لا يزالون المرشحين لقيادة هذا الركب بحكم رحمهم بالنبي العربى وتمكنهم من لغة الوحى التى بها شرفوا .

العرب هم نواة الأمة الإسلامية ، كانوا وبقون ، بإسلامهم وعروبتههم ، بإسلامهم قبل عروبتههم . وإنها لمسئولية ما هى بالزعامة . إنها لرسالة ، ما هى بالسلطان تحوطه القوة . ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك . وسوف تسألون ﴾ .

سمع التاريخ مقالة ربيعى حين ترجم على لسان المستضعفين الوارثين برنامج الإسلام فى العالم ، والواعون من المسلمين اليوم يخاطبون العرب ويناشدونهم ليطبقوا ذلك البرنامج ، ويقودوا الجهاد كما كان الجهاد يوم ذلك الإعلان .

هذا واحد من خيار علماء المسلمين المعاصرين ، أبو الحسن الندوى ، أحسن الله إليه ، يرسم للعرب ، وهو الهندى الجنسية ، طريق القيادة العالمية للعرب ، ويحدد شروطها . نثره يتكلم عن ترهات القوميين منا ، عاليا عنها . قال :

« إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول . الإخلاص للدعوة الإسلامية ، واحتضانها ، وتبنيها ، والتفانى فى سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة .

« وبذلك - من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوتها - تخضع لهم الأمم الإسلامية فى أنحاء العالم ، وتتهالك على حبههم وإجلالهم وتقليدهم . وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة ، وميادين جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التى استعصت على

غزاة الغرب ومستعمره وثارت عليه ، وتدخل أم جديدة فى الإسلام ، أم فتية فى مواهبها وقواها وذخائرها . أم تستطيع أن تعارض أوروبا فى مدنيّتها وعلومها إذا وجدت إيماننا جديدا ، وديننا جديدا ، وروحنا جديدا ، ورسالة جديدة .

« إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التى فتحتم بها العالم القديم فى ميادين ضيقة محدودة ؟ ! وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم - الذى جرف بالأمس المدنّيات والحكومات - فى حدود هذا الوادى الضيق ، تصطرع أمواجه ، ويلتهم بعضها بعضا ؟ ! إليكم هذا العالم الإنسانى الفسيح الذى اختاركم الله لقيادته ، واجتباكم لهدايته ، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد فى تاريخ أمتكم ، وفى تاريخ العالم جميعا ، وفى مصيركم ومصير العالم جميعا . فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد ، وتفانوا فى سبيلها ، وجاهدوا فيها . ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ﴾ (11) .

وبهذا نختم ، وبالصلاة والسلام على النبى العربى صفوة الله من خلقه والهادى المبلغ الأمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

(11) من كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، ص 318 - 319 ؛ الآية 78 من سورة الحج .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	5
الفصل الأول : اللسان العربى	7
الولاء للغة	9
العروبة والإسلام	11
« جزء ماهيته »	14
إعجاز القرآن	17
مناط الإعجاز	20
لغة القلب	22
الفصل الثانى : التراث والأصالة والتحديث	25
صدمتان قاسيتان	27
التفوق الهائل	29
التراث المجيد	31
إطراء الذات	33
التراث الحى	35
القانون التراثى الواقعى	37
القومية والدين	39
الفصل الثالث : جذور العلمانية	43
الفصام -- النكد	45
الفاسقون	47
الوصال الأنكد	50
من هم النصارى	53
البابوية والتجارة فى الدين	55
أرض الجنة فى المزد العلى	58
اطهاد رجال العلم	60
الاصلاح والتجديد	62
حرب بين العلم والدين	64
حضارة لا تعرف الله	65
جاهلية	67
الأصالة الجاهلية	70

74 شبح الحروب الصليبية
78 شبح الحروب الصليبية اليوم
81 كونوا مع الصادقين
85 تاريخ الحروب الصليبية
87 التفتت التاريخي
91 الملك الصالح
95 تحرير القدس
100 الإلحاد المفلسف
102 الردة والزندقة
105 الإلحاد العلمي
107 الدين .. عاهة وعيب
110 النصارى العرب
114 الدين للآخرة فقط
117 تموجات وتيارات
119 الاشتراكية القومية
121 الحل التلفيقي
125 ركيزة الانحطاط
128 الثورة الثقافية
133 الفصل الرابع : القومية
135 الإيديولوجية
137 ميلاد القومية العربية
139 الانتساب لله عز وجل
141 العالمية و القومية
144 حسن الصحبة
149 النسبة الجاهلية
154 عيبة الجاهلية
158 عرب قبل كل دين
163 أفحكم الجاهلية بيغون ؟
168 « وإنه لذكر لك ولقومك »
171 « الله ابتعثنا »
173 إلى قيادة العالم يا عرب
175 الفهرست

هذا الكتاب

★ هذا الكتاب يطمح إلى عرض مسألة لا يحسن للفكر الإسلامى أن يتجاوزها : هى مسألة القومية وعلاقتها بالعلمانية.

★ إن المثقفين المسلمين ، من بقى منهم ، على موزنهم الفطرى الإسلامى ومن تنكر لدينه ، ينشغلون انشغالا كثيرا بالبحوث فى التراث والأصالة والأمجاد القومية ، ينسجون من كل هذه المفاهيم طيلسانا يتقنعون به ليزدان فى أعينهم الواقع الكئيب لمجتمعاتهم . فى هذا الكتاب نصطنع اللغة التى يألّفها المثقفون لنحاورهم محاولين إسماع كلمة الإسلام.

★ فى هذا الكتاب نعرض إن شاء الله لشيء من تاريخ الإيديولوجية القومية التى نبعث فى أرض غير أرضنا فاستوردها المثقفون المغربون من ذرارينا ليركبوا متنها فى كراتهم التى تحمل شعارات الإلحاد المفلسف تارة والردة والزندقة مرة والإلحاد العلمى أحيانا والأصالة التزائية أحيانا أخرى.

ومن خلال العرض التاريخى نقول رأينا الإسلامى .

وعلى الله قصد السبيل ...

عبد السلام ياسين

دار البشير للثقافة والعلوم

طنطا ٢٢ ش الشهيد عادل الزواوى - أمام كلية التربية النوعية
٢٢٢٤٠٤٥ - فاكس ٢٣١٨٠٠

